مراسيل آذار

هذه ليست قصصًا لبعضِ الأشخاص، وإنما هي قصةُ الرسائلِ

أستير ثابت

دار ياقوت للنشر والتوزيع

مراسيل آذار

اسم الكتاب: مراسيل آذار

اسم الكاتبة: استير ثابت

المنسقة: فاطمه محمد

الناشر: دار ياقوت للنشر والتوزيع

مؤسسة الدار: فاطمة محمد

التواصل: 01555191983

- https://www.instagram.com/fatma_mohamed_1592004?igsh=MWtkenpiY2prcWhtdQ==
- https://www.facebook.com/profile.php?id=61558744370898&mibextid=ZbWKwL

تنويه

رُبما تجد رسالة تخصك بينهم

دار ياقوت للنشر والتوزيع　　مراسيل آذار.　　استير ثابت

رُبَّما تجدُ نفسَكَ هُنا، وتعلم أن في مكانٍ ما، مكانٍ مُختلفٍ
تمامًا عنكَ يوجد مَن يُشاركك أفكارَكَ وخوفِكَ.

أتمَنَّى ألَّا تتعثَّرَ حُرُوفِي هَذه المَرةَ وَتَصِلك، لا أعلمُ أي عُنوانٍ سَأدُونُهُ أسفَل الوَرَقِ، أنا لا أعلمُ أينَ أنتَ، وَرَغمَ ذَلِكَ لَم أمنع نَفسي مِن إرسَالِ الكَثِيرِ مِنَ الرَّسَائلِ العِتابِيةِ، مُحتَوَاهَا يَغلِبُ عَلَيهِ الدَّمعُ، وَخَانَتَا المُرسلِ إليهِ وَالعنوانِ فَارِغتانِ.

إني أسألُكَ فهل تُجيبُ سؤالي؟ ماذا جنيتُ كي تملَّ وصالي؟
لو أني أعلمُ أنَّ قلبَكَ سيكونُ لغيري، وسأُطوى في ذكرياتِكَ كورقةٍ قديمةٍ، لكنتُ تجنبتُ التعثُّرَ بكَ، ونجوتُ من جفائِكَ وهجرِكَ،
لا أعلم أأصبحتَ في علمِ الغيبِ مجهولًا غيرَ معلومٍ متى سيعود؟ من مشفى إلى مشفى، ومن قسمٍ إلى آخر، أجرُّ نفسي كغرضٍ بالٍ وعتيقٍ، أقول لهم: هل رأيتم حبيبي؟ هل مرَّ من هُنا؟ هل رأيتم رجلًا طويلًا يمتلكُ لحيةً خفيفةً وشامةً على وجنتِهِ؟
لم يكن شعرةً وقعتْ من رمشي أو غرضًا صغيرًا كي يختفي من حياتي في غمضةِ عينٍ، هو وقصصُهُ وحكاياتُهُ، كلُّ ما أشعرُ بهِ أنَّ كلَّ الأخضرِ الذي بداخلي قد يَبِسَ من بعدِكَ، وقد علا سورُ اليأسِ وحاوطَ قلبي، ولم أعُد أستطيعُ انتظارَكَ، على الرغم من أنني لم أستطع التوقُّفَ عن ذلك ولكن صِدقًا يا عزيزي، كلُّ شيءٍ بداخلي يُعلنُ ثورتَهُ، وتمرُّدَهُ، وغضبَهُ عليك، كلُّ شيءٍ بداخلي أصابهُ الشكُّ حولَ كلِّ شيءٍ قلتَهُ لي أو فعلتَه، كلُّ شيءٍ يلومني على إعطائِكَ أجزاءً مني بين يديكَ فقط لأنني أحببتُكَ، وقلبي أعمى إن أحبَّ أو عشق، والآن من سيُصلحُ ذلك التلفَ الحادثَ هنا؟

عزيزي سراج، دعني أُشاركك آخر ما توصلتُ إليه، إننا - ومع الأسف- لسنا مُخيَّرين يا سراج، تلك الحرية التي يتغنَّون بها كاذبة؛ هُم يفرضون علينا بعض الأمور، ويجب أن نختار - رُغمًا عنَّا - واحدًا من تلك الفروض، لو كنَّا نمتلك الحرية حقًا، لاخترنا من يُرافقنا دُروبنا، ومن نتزوَّجه، لاخترنا موطنَنا وعائلتنا، عِرقَنا وأصلَنا، هذه سخافة يا سراج! أقسم إنني لو تَركتُ أفكاري تجرفني، لَأَلحدتُ الله الذي ينظر إلينا هو من يختار حياتنا، ديانتنا، موقعنا الجغرافي، وكلَّ شيء، وفي نهاية اللعبة، نجد أنفسنا إمَّا في الفردوس أو الجحيم، ستخبرني إننا مُخيَّرون، صحيح؟ وإن بإمكاني اختيار صديق أو زوج، أُشير فقط على أيِّ أحد، ومن غدٍ سيُعقد قراني، ولكن ذلك الشخص يجب أن يكون لائقًا حسب معاييرهم؛ عائلته تكون مُحبَّة لعائلتنا، وبلدُه ليست بعيدة، حالته المادية جيدة، ويعتنق نفس ديانتي بالطبع، أرأيتَ يا سراج؟ هذه هي الفروض التي نختار من بينها، حتى لو لم يكن مناسبًا لنا، ما دُمنا بينهم، سنخضع لتقاليدهم، نحن لا نكسر القواعد السائدة هُنا، صحيح؟ بمناسبة القواعد، لو تحدَّثتَ مع المسلمين، لأقسموا أن الفردوس ينتظرهم، ولو تناقشتَ مع المسيحيين، لأقنعوك أن الجنة ملاذهم، ولو تحدَّثتَ مع اليهود، لأخبروك أن الجنة خُلقت لهم، لماذا يُودَع الإنسان في مكانٍ كالجحيم للأبد، لأنه لم يتبنَّ دين الآخر؟ أهذا عدلُ الله؟ أهذا قانونُ الأديان؟ ويأتي أحدُهم ويخبرني

بكُل اللَّزَاقةِ التي في الكون: "نحن مُخيَّرون!" أحقًا؟ وعندما أمدُّ يدي وأختار، أُصفَع ويضعون يدي على بداية الطريق مُجددًا كي أختار شيئًا آخر، يا لسخافتكم!

لا أعلَمُ كيف تمرُّ ساعاتُ الليلِ من دونِ أن يَلتهِبَ صَدرُ أحدِهم مِن شِدَّةِ اشتياقِه، من دونِ أن يَحتَرِقَ عقلُه من الأسئلةِ، رُبَّما مَن يَنامونَ في تلكَ الساعاتِ هم مَن لا يَنتظِرونَ رسائلَ مِن أحدٍ، لا يَنتظِرونَ عودةَ غائبٍ، ولا يَنتظِرونَ إجاباتٍ لأسئلتِهم، مَن لم يَفتِكِ الاشتياقُ بأضلاعِه لن يَفهَمَ سُطوري، لن يَشعُرَ بضِيقِ العالمِ على قلبِه، لن تَكونَ لغتُه كلُغتي، سَتكونُ حُروفي مُجرَّدَ "طيش شباب" تلكَ النارُ المُتأجِّجةُ في عُروقي هي مُجرَّدُ طَيشِ شبابٍ! تِلكَ الصَّفعاتُ على وجهي وإدراكي أنَّ كُلَّ ما أَحنُّ إليهِ أصبحَ أطلالًا أَبكي عليها هو مُجرَّدُ طَيشِ شبابٍ! ذلكَ الطَّيشُ قَتَّالٌ يا عَزيزي، ذلكَ الطَّيشُ يُجعلكَ تَفقِدُ صَوابَكَ، ويجعَلُ الشُّكوكَ تَهُزُّ كيانَكَ وتُزعزِعُ ثَباتَكَ، ولن تَجِدَ ما يُهَدِّئُ وساوِسَكَ ويُربِّتُ على قلبِكَ، يَصُدُّ هَجماتِ الأعداءِ، ويَمنَعُ حديثَهم القاسيَ مِن أن يَطُولَكَ.

عزيزي، لماذا لم تَعُدْ تُرسل لي؟ ألمْ تشتَقْ إليَّ؟ كتاباتي العظيمة وحروفي الرائعة لم تُرِق قلبَك؟ ألمْ ينتابكَ الفضولُ لترى إن كنتُ أتعَدَّى على حُرمَتِكَ وأذكُرُكَ في نُصوصي أم لا؟

يا عزيزي، دعني أسألكَ سؤالًا واحدًا، لماذا لم تُحاوِل مُجددًا من أجلِي؟ أخبرتني أنك تُحبني وتُريدني، إذنْ ماذا؟ لماذا لم تتحمل مَشَقَّةَ الطريقِ لأجلِ أن تَنَالَ قلبي؟ دَعكَ من جَفَائِي وحديثي الدائمِ عن أنني أمقُتُ الرجال، كان بإمكانِكَ أن تكونَ غيرَ هؤلاءِ الرجالِ الذين لا أُحِبُّهم، هؤلاءِ المُصْطَنَعِينَ للرجولة، وخشونةِ الصوت، المُتَوَارِينَ خلفَ قناعِ العِفَّة، أنتَ لم تَنحَصِر في هذه الزاوية، كنتُ أراكَ مختلفًا وتُشبهني، ولكنه التوقيت يا عزيزي، التوقيت! رُبَّما لو أتيتَ في وقتٍ غيرِ الوقتِ؛ لَرُبَّما أحببتُكَ وفَتحتُ لكَ قلبي على مِصرَاعَيهِ يا عزيزي، أنتَ رجل، والرجلُ يُحَاوِلُ ويُحَاوِلُ حتى يَنقَطِعَ نَفَسُه، لا يَتَخَلَّى عن شيءٍ أرادَه، ولا يَتَرَاجَع، ولا يُخبِرُهُ أحدٌ بما يجبُ عليهِ فِعلُه، لذلك، يا رجل، راسِلنِي، إنني بدأتُ أفقِدُ صوابي، جُدْ بالرسائل، إن عقلي يَحتَرِقُ، وقلبي أصبحَ تَالِفًا، لا يَفهَمُ لماذا يُرِيدُكَ، وعلى النَّقِيضِ يَنفُرُ مِنكَ هَارِبًا، ولكنَّكَ مُجبَرٌ أن تُرسِلَ لي، فأنتَ الرجل، لذا تَحَمَّل هِبَةَ رَبِّكَ بإعطائِكَ رُجُولَتَكَ، وأرسِل لي، أرسِل لي، لأنَّ أُمِّي لا تَكُفُّ عن تَبكِيتِي وتَوبِيخِي، إنَّها تَسألُنِي: لماذا انقطعَ وِصالُكَ؟ هي تلُومُنِي، وجميعُ أشيائي تُعلِنُ ثَورَتَهَا عَليَّ، أصبَحتَ – فجأةً

– مِحوَرَ يَومِي، أنَا التي كنتُ أُغلِقُ البابَ في وجهِكَ، أعتذرُ مِنكَ، فأنا خائفة، ومثلُكَ أَرَقُّ من أن يُكسَرَ من امرأةٍ مثلي، أرسِل لي أرجوك، فإنِّي لا أعلَمُ إلى متى سأصمُد، وأخَافُ أن أُصَدِّق أنَّكَ رَحَلتَ.

مرحبًا عزيزي القارئ، لم نتحدَّث منذ مدة، هل الأمور تسير بشكلٍ جيدٍ الآن؟ أم لا زِلتَ لا تعلم وجهتك؟ هل لا زِلتَ تُطارد أحلامك، أم أَلَمَّتكَ قدمُكَ من الركض؟ هل من كنتَ تُحدِّثني عنه ما زال في حياتك، أم أنكَ الآن تنظر إلى صورِهِ بخيبةِ أمل؟ أنتَ لا تقوى على إخبارِ الصورِ بما حدث، صحيح؟ ولكنك مُخطئٌ أيضًا يا عزيزي، لا تُلقِ أخطاءَك على الأشخاصِ المُحيطين بك، لأنَّ -وللأسف- حظهم العاثرَ قادهم إلى طريقك، طمئِنِّي على يدِكَ، هل ما زالت تُسقط الأشياءَ الثمينة يا أحمق؟ معذرةً، لا أقصد إهانتك، ولكني أُشفق عليك، أعلم كيف تُفكِّر الآن، وأنَّ كلَّ الأشياءِ تخرج عن سيطرتِك، وذلك يُغضبُكَ كثيرًا، أعلم أنك تَمقُتُ نقدَهم الدائم لك، وكأنك خُلِقتَ بشكلٍ خاطئٍ لا يُناسبهم، فيجب عليك أن تُعيد تشكيلَ نفسِكَ لتُرضِيهم، لا تحزن، أنا أفهمُك، أنا أيضًا أكرَهُهم عندما يفعلون ذلك، حدَّثتُهم مرارًا وتكرارًا كي يقبلوني، وهم لا يُصغون، أخبرني، أنتَ لا زِلتَ خائفًا؟ لا زِلتَ لا تستطيع السيطرة على مخاوفك؟ الخوفُ من فتور إحساسِك تجاه من تُحب، الخوفُ من أن يمسَّ مكانَ راحتِكَ سوء، خوفُكَ من أن تتغلَّبَ عليك أفكارُكَ وتخرُجَ عَنوَةً عنك، وترى كم أنتَ بشع يا عزيزي، أفهمك، أفهمك... أنت خائفٌ من التغييرِ والتغيُّر، خائفٌ من أن تتوهَ في أماكنَ حفظتَها عن ظهرِ قلب، خائفٌ أن تتقبَّلَ الأذى لأنك فقط تُحبُّه، خائفٌ

أن ينتهيَ بك المطافُ مثلَ الذين تعرفُ مصيرَهم، أنتَ خائفٌ من اختيارِ طريقٍ جديدٍ لتسيرَ به، خائفٌ من أنكَ لن تستطيعَ التحرُّرَ منهم أبدًا، خائفٌ أن تُهاجَمَ في أيِّ لحظة، أشمُّ رائحةَ خوفِكَ من مكاني هذا، إنَّها قويةٌ ونفَّاذةٌ وتَجعلُني أنفرُ منك، سامحني، حتى أحلامُكَ لم ترحمكَ يا عزيزي، ما ظننتَ أنكَ تخطَّيتَه يُجسِّدُه عقلُكَ لكَ بأبشعِ المناظر، كي لا تهربَ مجدَّدًا يا أحمق، أنتَ حتى خائفٌ من أن ترى حجمَ الضررِ الحقيقي، لأنك -وبكلِّ بساطة- في وقتٍ لا يسمحُ لكَ بالانهيار، أنتَ خائفٌ أن تظلَّ هكذا، لا تشعرُ بشيء، لا شيء يُحزنُكَ، لا شيء يُسعدُكَ، أنتَ في المنتصفِ الرماديِّ لكلِّ شيء، أنتَ خائفٌ من التجربة، خائفٌ من عدمِ التجربة، خائفٌ أن تُصبحَ ما ظللتَ طوالَ حياتِكَ تُجاهِدُ ألا تُصبحَه، أنتَ خائفٌ أن تظلَّ في مكانٍ لا يُشبِهُك بحجةِ الحب، أنتَ خائفٌ من الحب، وخائفٌ من ألَّا تُحَبَّ، آهٍ يا عزيزي، يكفي! دعني أُربِّتُ على قلبِكَ وأشملُكَ في دعائي، عسى أن يكونَ كلُّ شيءٍ بخير، دعني أنصحُكَ بصفتي طبيبتَكَ النفسيةَ وكاتبتَكَ المفضَّلة، وصديقتَكَ الوفيَّة، ابتعد عن مُسبِّبات الأرق؛ من القهوةِ المُرَّةِ، والذكرياتِ التي جمعتكم، والأغاني التي كانت بينكم، والطُّرُق، وحدثني كلما ساء الأمر، سأكون هنا.

فكَّرتُ في جَعلِكَ رجلًا حقيقيًّا في حياتي، رجلًا أستطيعُ ذِكرَ اسمه أمامَ أُمِّي وأبي، لا أطمسُ اسمه في نُصوصي، ولا أخشى مُحادثته علنًا، ولكنَّ حياتي أسوأُ وألعنُ ممَّا تتخيَّل؛ إنَّني مُنطوٍ على ذاتي، أعتدتُ الزَّيفَ لأنَّ الحقيقةَ تُؤلِمُني، أخافُ الأشياءَ الصَّادقةَ لأنَّها تُعَرِّي دَواخِلي، وأهربُ منها لأنَّها تُحْيِي بداخلي فكرةَ أنَّ بإمكاني الحياة
شخصٌ مِثلي توقَّفت الحياةُ عن الدَّورانِ معه منذ أوَّلِ مُحاوَلةِ انتحار، أنا شخصٌ مُهترِئٌ، لا يَنتمي إلَّا لذِكرياته القَديمةِ التي لن تُعاد، بداخلي رجلٌ يَتربَّعُ على عَرشِ قَلبي، يَلدَغُ كلَّ مَن يُحاوِلُ الاقترابَ مِنِّي، ويَلْدَغُني لأنَّني أُفَكِّرُ في التَّعافي منه، وأخشى أن يَلدَغَكَ أنتَ أيضًا، أنتَ لا تَستَحِقُّ الأذى، لا تَسْتَحِقُّ أن تَأْخُذَ الأشياءَ النَّاقصةَ الباهتةَ، وأنا لن أستطيعَ الازدهارَ لأجلك، حُبُّكَ ليس أكبرَ مِن بُؤسي، لا أستطيعُ توفيرَ ما تحتاجُهُ من المشاعرِ والحُبِّ والفَراشات، ذلك غيرَ أنَّني مُضطَرِبٌ وأشعُرُ بالنَّقص، النَّقصُ ليس عارًا، كلٌّ مِنَّا يُعاني من النَّقصِ بطريقةٍ مُختلِفة، وأنا أُعاني من نَقصِ الصِّدق، نَقصِ الحُبِّ والمشاعِر، وقد تَلمَعُ لك تلك الفكرةُ بأنَّكَ تستطيعُ إكمالَ نَقصي وأُصبحَ واحدًا صحيحًا معك، لا تُصَدِّق تلك الفكرةَ، إنَّها مِن صُنْعِ رغبتِكَ بي، إنَّما هي مجرَّدُ أوهام.

يقتحم دوّامة تفكيري صوتُ فيروز وهي تُغنّي: "أهواكَ.. أهواكَ بلا أملٍ" أرفضُ هذا العشقَ المؤذي يا سراج، لا تُعجبني فلسفةُ فيروز في التعبير عن الحُبّ والانتظار، فهي تمسّ كرامتي ومشاعري، لماذا لا يغمضُ لي جفنٌ، وتَضرِبُ الأسئلةُ رأسي، وأقول: هل سيعود؟

أنا أخشى الانتظار يا سراج، أخشى أن تتآكل رغبتي، ويثورَ عقلي عليّ، ويُشيرَ لي على الفُرصِ الضائعةِ التي أتركها خلفي بمسمّى الانتظار، وماذا إذا لم يَعُد من الأساس؟ رُبّما أُحبّ فلسفة أُم كلثوم، فمهما كان عشقُها، في النهاية ترفضُ استهلاكَ طاقتها في الانتظار، هي تعرف معنى الوفاء، لكنها تعرف أيضًا معنى قسوة الانتظار، تلك التي تقودُك إلى التخلّي عن كرامتك

لا أحبّ أن أكونَ مثلَ فيروز، التي يتركُها مَن تُحبّ، وتظلّ تنتظرُه بلا أمل، تعيشُ على ذكرياته، وتتساءل: أين هو؟ وماذا يفعلُ الآن؟ وهل يفكّرُ بها؟ أريدُ أن أكونَ مثلَ أُم كلثوم، التي قالت: "وعايزنا نرجع زي زمان؟! قول للزمان ارجع يا زمان!"

أعلمُ أنّني أضعفُ من أن أُفارقَ شخصًا أحببتُه، أنا أخشى الفُراقَ والهَجرانَ والظلام، وأخشى رسائلَ الوداع، ونظراتِ الناسِ المتفحّصةَ لقلبي، أخشى المرتفعات، وأخشى الوقوعَ

في الحبّ، أخشى الاحتياجَ، وأخشى الضَّعف، ولكنّي أيضًا أخشى الانتظار بلا وجهةٍ مُحدّدة، بلا رباطٍ يجمعُنا، بأيِّ مُسمّى سأفني سنواتِ عمري؟ أنا أيضًا بحاجةٍ إلى أن يطمئنَّ قلبي، وتُرسلَ لي بعددِ الثواني أنّك تحبُّني وتريدُني، وأنّك لن تُفلتَ يدي، ولن تُضيّعَ سنواتِ حياتي هباءً، وأقسمُ لكَ،
سأنتظرُك حتى مماتي

عزيزي فلان، لقد وعدتُهم بأن أُخرجَك من رأسي، ولكن ذلك كان مُجرد حيلةٍ للتخلص من غضبهم، إنك في قلبي، لا يمكنني التخلص منك حتى لو أردتُ، بوسع أمي أن تُوبخني، وتُراقبني، وتفرضَ عليَّ سيطرتها، وبوسع صديقتي منعي عن رؤيتك أو مُحادثتك، ولكنهم أبدًا لن يستطيعوا انتزاعَك من رأسي، ليس لأنني لا أستطيعُ فقط، بل لأنني حتى لو استطعتُ، فأنا لا أريد أن أنساك، حتى لو كانت حروفُ النهايةِ لن تُكتبَ ونحن معًا، حتى لو كنتَ وهمًا وأفقتُ وأنتَ لستَ هنا، لا يهمني، فأنا أُحبُّك رغم جهلي التام بذلك المصطلح، ولكن رُبما فاقدُ الشيء هو الجديرُ بإعطائه

عزيزي فلان، البارحةَ ضبطتني أمي وأنا أكتبُ رسالةً لك، فاستشاطتْ غضبًا، ومزقت الورقةَ بغيظ، قالت إنها ستكسرُ رأسي إن رأتني أكتبُ لك مرةً أخرى، مُتداعيةً أنني أُدمِّرُ نفسي بحبك، وأن تلك قصةٌ لا جدوى منها، ولن نراها إلا في المسلسلاتِ الهابطة، أما على أرضِ الواقع فلا، فأنا حالمةٌ...

آهٍ يا عزيزي، أشعرُ بوخزٍ في قلبي إثرَ اشتياقي لك

عزيزي فلان، لماذا لم يُتَح لنا الوقتُ الكافي ليشبعَ كلٌّ منا من الآخر؟

عزيزي فلان، رغبتي في خوضِ يومٍ آخرَ وأنت لستَ هنا تكادُ تكونُ منعدمةً، أنا أنتظركَ، ولا أستطيع فعلَ غيرِ ذلك، لا أستطيعُ جعلَ عجلةِ يدي تتوقفُ عن الكتابةِ لكَ وعنكَ، أُناجيك أن تأتي، وألتمسُ أعذارًا لغيابك

عزيزي فلان، ذلك الاشتياقُ يفتكُ بي، أحاولُ التظاهرَ بأنَّ
غيابك ليس حدثًا جللًا، وأستطيعُ مُمارسةَ يومي طبيعيًا؛
الدراسةَ والجامعةَ وبعضَ الصورِ التي التقطتُها، إلى آخرِه،
ولكنِّي أكذبُ، أنا اشتقتُ لكَ كثيرًا

إلهي، لماذا هذا حالي؟ لماذا أنا هُنا؟ لا شأن لي بكل المهاترات السياسية، والفتن الطائفية، لا شأن لي، فأنا أريد أن أُحِب، أريد أن أعيش، أريد أن أتنفس كل صباحٍ وهو بجانبي، ولا غير صباحِه أُريد.

أضيع أنا بألفِ ثقافةٍ، وألف صراعٍ، وألف قضيةٍ، وألف بلدٍ ولُغةٍ، تَعلمتُ كل ما لا أنتمي إليه؛ كي أنتمي إليك أنتَ، كي أكون بقُربِكَ، لم أعرف يومًا كيف أصف الحروف والكلمات؛ لأنثر معانٍ تحوم بي،إلا عندما رأيتُكَ، لم أعرف الفرق بين المصارعةِ الحُرَّةِ، والملاكمةِ إلا عندما عرفتُكَ؛ كي أكون مولعًا بما أنت مولعٌ به، حَفِظتُ نوتات داليدا وماجدة الرومي، وفيروز لأجلك، آهٍ لو علمت كم أُحبك

*كنتُ أتلصص يوميًا على حساباتك وأعرف ما تسمع، ومن تتابع، وكل الأشياء التي تُعجب بها، عندما كنتُ أشتاق لكَ كنتُ أستمع لمقطوعةٍ أنت تُحبها، أُدمنها حتى تمل أُذني منها، ولا يمل قلبي منك أبدًا، أحفظ كلماتك عن ظهرِ قلبٍ، وكأنكَ تختزل الحب المخزن في قلبي منذ سنينٍ يا عُمري، بل منذ أن خُلِقتُ.

في الحقيقةِ، ليسَ الجمالُ في تلكَ الورودِ المُطِلَّةِ على شُرفتي، ولا في ضوءِ القمرِ الذي يرسمُ لوحةً مُبهرةَ التوزيعِ بينَ الانعكاساتِ والخيالاتِ، ولا في آخرِ رشفةٍ من فنجانِ القهوةِ، إنَّني أراكِ فيهم؛ فأراهم أجملَ من حقيقتِهم المُجرَّدةِ، أشعرُ بكِ هُنا، تهبينَ الأشياءَ جمالَها، والجمالُ هو ما كانَ العقلُ عاجزًا عن فهمِه، وأنتَ إمَّا أن تُحاولَ فهمَه؛ فيضيعَ سرُّه، وإمَّا أن نكتفيَ بالإيمانِ به، فلا مُفسِّرَ له إلا ذاتُه.

البحر الأحمر ٢٠٠٢

كانَ يَتَمَلكُني الخوفُ كُلَّما تَحَدَّثتُ معهُ، كُنتُ أشعُرُ بِما لا أُريدُ أن أشعُرَ بهِ، سُرعةُ دقّاتِ القلبِ، السعادةُ المُفرطةُ غيرُ المُبَرَّرةِ، كُنتُ مُستمتِعةً بكلِّ دقيقةٍ أقضيها معهُ، لا يَنتهي الحديثُ بيننا أبدًا، كان لدينا دومًا ما نَتحدَّثُ عنهُ، أحلامُنا الضائعةُ، أَسماءُ كلابِنا، كُنّا نَتَبادَلُ الأفكارَ والطُّموحاتِ نفسها، بل ونتبادلُ الآراءَ المختلفةَ أيضًا، نَتبادلُ ما نُفضِّلُ من موسيقى، نختلفُ أحيانًا ونتفقُ أحيانًا.

كلُّ ما أَشعُرُ بهِ تجاهَهُ مُبهَمٌ، أُخفِيهِ في رُكنٍ ما في قلبي، خِفتُ أن أغرَقَ فيهِ حُبًّا وأخسرَ صديقي، كانَ لديَّ رغبةٌ عارمةٌ في التحدُّثِ مع غيرهِ لأُثبِتَ لنفسي أنَّهُ ليسَ مميزًا على الإطلاقِ، وأنَّني أُحبُّهُ كأيِّ شخصٍ في حياتي، ولستُ أُفكِّرُ فيهِ، ولا تَلمعُ عَينايَ عند رُؤيتهِ، ولا يهدأ ثوران عقلي عندما أُحدثه، ولا أكتُبُ عنهُ الآنَ أيضًا، أنا أفعَلُ كُلَّ شيءٍ لأجلي، وهذهِ مشاعِرُ وستَختفي مع الوقتِ، ولكنِّي رُبَّما كاذبةٌ، لم يمتلك أحدٌ القدرةَ أن يَدُبَّ الحياةَ في أوصالي هكذا، ولم يُرغمني أحدٌ على حُبِّه كما يَفعَلُ هو، هو مَن يَجعلُني أُريدُ أن أعيشَ يومًا إضافيًّا فقط لأجلِ أن أتواجدَ معه، وَلكنَّني كُلَّما مشيتُ لهُ خُطوةً يُرجعني الخوفُ مئاتِ الخُطواتِ، كيفَ يُمكنُ أن أُحبهُ من دونِ خوفٍ؟ كيفَ يُمكنني أن أندفعَ نحوهُ من دونِ أن يَتحدَّثَ إليَّ ذلكَ الصوتُ اللعينُ

أنَّني أُخطِئُ، وأنَّني إن اندفعتُ مُجددًا تِلكَ الطُّرُقاتُ التي كُنا نَلتقي بها لن أستطيع لَملَمةَ شَتاتِ قَلبي منها، ليتني تَعَثَّرتُ بهِ قبلَ أن يُقيمَ قلبي ثورتَهُ على الحُبِّ وعلى العُشَّاقِ، ليتَ قلبي لم يُخدَش؛ كُنتُ سأفتَحُهُ على مِصراعيهِ لكَ، كُنتُ سأُحبُّكَ كما أنا، دونَ أن أسمَعَ نصائحَ أصدقائي وأقاربي عَمَّا يجبُ أن أفعَلَهُ وعَمَّا لا يجبُ، لو لم أتعثَّر بغيركَ كُنتُ سأُخبِرُكَ: "أنا أيضًا أُحبُّكَ" من دونِ أن يَرتجِفَ قلبي وتُعادَ إليَّ جميعُ ذِكرياتي السيِّئةِ ومخاوفي.

عزيزي، للمرةِ الرابعةِ على التوالي، أُخبِرُكَ آسفةٌ لأنَّكَ تَعَثَّرتَ بي أنا.

عاهدتُ نفسي أن أُحاول معه؛ لأنه يستحق.
عاهدتُ نفسي أن أُصدِّق إحساسه ونواياه.
عاهدتُ نفسي أن أُصدِّق كلماته، وأُصدِّق مشاعري تجاهه حتى لو قادتني إلى طُرُقٍ حزينة، وأن أُصدِّق أن أحضانه نابعة من حُبِّه وليست شفقةً مُستترة.
عاهدتُ نفسي أن أسقي فروع قلبي الذابلة دون كللٍ أو مللٍ، رغم يأس الجميع من حالتي، ولكنه يستحق أن يسكن في قلبٍ مُزهر. عاهدتُ نفسي أن أُصدِّق ابتسامتي إثرَ كلماته المُعسولة، وأن أُصدِّق الأمان الذي أشعر به معه، رغم وحشة ما مرَّ وصعوبة ما مضى.
عاهدتُ نفسي أن أشعر بالأمل رغم الكثير من الإحباطاتِ المُتكررة، ولكنهُ يستحق.
يستحق الأفضل، يستحق أن تُعطى له جميع المشاعر المُكدَّسة، دون أن يتواجد فوقها أتربة.
يستحق أن يُحب، يستحق أن يُدعى له في السيدة نفيسة، وكل منازل الأولياء.
يستحق أن أتحرر من الاحتمالات؛ لأن الاحتمالات حلقةٌ مُفرغةٌ لا نهاية لها.
يستحق أن تُحكى له القصصُ والحكاياتِ، وأن أكتب له بكل اللغاتِ.
يستحق أن تُهدى له الزهور، والكُتب، وكل جميلٍ.
آهٍ يا سيدي، فقط لو تعلم.

"لا أُحِبُّ "أُحِبُّكِ" التي تأتي في الأعياد، إنما أُحِبُّ "أُحِبُّكِ" التي تأتي عندما يكفُّ الجميع عن الحبِّ،" أُحِبُّكِ" حين يزهد المُحِبُّون في التعبير عنه، "أُحِبُّك" التي تأتي وأنا مُنهَزِمٌ ووجهي شاحبٌ، ليست تلك التي تأتي وعيناي تلمع وتضخُّ الحبَّ، لا يستهويني الحبُّ المُعلَّب، والشوق المُقنَّن في إطارٍ واحدٍ، مصنوع منه مليون نسخةٍ تُوزَّع في الأيام التي يقول فيها الجميع للجميع إنَّه يُحِبُّه، ذلك الحبُّ المُلقى في مداخل البنايات، والمتوافر دائمًا أمام نظرهم، لا تستهويني المشاعر المُتبقية، أُحِبُّ "أُحِبُّكِ" التي تأتي حين غفلةٍ، تُبعد عني رتابةَ الأيام وتُشعرني بما يُسمى "بجنون الحب"

في الحقيقة، يستهويني من الحبِّ نوعٌ آخر، ويأسرني بتفاصيله البعيدة كلُّ ما هو غير مرئي، أُراقبُه في العيون التي لا تستطيع أن تُعانق بعضها، وأتعجَّب كيف لها أن تنتظر شهرًا، أو عامًا، أو خمسة، كيف يقبضون على جمر الحبِّ من دون أن يحرقهم الانتظار؟

يستهويني "حبُّ زمان" الذي أبحث عنه منذ أن كنتُ طفلة، أبحث عنه بين الأوراق، والجوابات، والأفلام، ولم أجده بعد، رُبَّما بحثتُ عنه في أحلامي أيضًا، أتخفَّى في غطاء الليل وأنا أُمسك يديك، أشتاق بلا مُحاكمة، أُخبرك "أُحِبُّكَ" بلا ذنبٍ، أبوح دون أن أكتم، أضعف كما أشاء أمام عينيكِ من دون أن أُجبر على التظاهر بالقوة.

رُبَّما أنا "أهل الحبِّ المساكين" الذين ذكرتهم أمُّ كلثوم، أنا المُعاقَب بالبُعدِ، المُبتلى بالهجرِ، المُقيَّدُ بما ليس لهُ، أنا من كُتِبَ عليه أن يأخذ بواقي الحبِّ، بواقي القصص، بواقي المشاعر، بواقي الخطوات، أنا من سمع عن الحبِّ ولكنه عاجزٌ أن يصنع قصته الخاصة، أنا الفجوة بين العصور، أنا الصفحة المقطوعة من كتاب تاريخ، أنا اللون الرمادي، أنا دومًا في المنتصف، أنا طفلٌ وُلِدَ عنوةً رغم تعاطي أُمِّه حبوب منع الحمل، أنا القدر غير المُتوقَّع، الذي كُتِبَ عليه أن يُخذَل ألف مرة باسم الحبِّ، أنا من يبحث عن النصر وسط العديد من الانكساراتِ، أنا من يبحث عن نفسه وسط الصُفح.

اقتفاءُ أثرِ الجدِّ خليل

كان لي جَدٌّ قرَّرَ في يومٍ ما أن يبحثَ عن نفسه، ويُعادي قريتَهُ وقبيلتَهُ، ويرحل، تساءلنا: أين ذهب؟ وأيُّ بلدٍ قرَّر أن تكونَ وطنَه الجديد؟ هل التقى بالحبيبة، وأنجب أبناءَه الذين يلتفُّون حوله في أجواء العيد، ويُخبرهم عن عائلتِه المفقودة كأطلانتس الضائعة، تلك العائلة البسيطة، التي يُرثيها أحد أفرادها الآن، وهو أنا

أتساءل: أين أنت يا جدي؟ وهل ما زِلتَ على قيد الحياة؟ هل وجدتَ حياةً أفضل من هنا، أم سهرتَ الكثير من الليالي تلومُ نفسك على الرَّحيل؟ هل نسيتَ طريقَ بيتك يا جدي؟ هل نسيتَنا؟ نسيتَ إخوتك وأهلك، وألعابك، وشوارعَ قريتِك؟ هل تعلم أنَّ إخوتك تزوَّجوا ورأوا أبناءَهم وأحفادَهم؟

هل تعلم أنني حفيدتُك؟ رُبما أنا من كنتَ ستكتب في وصيَّتك أن يتزوَّج ابنَك الوحيد منها، أنا التي كانت ستُمازحك، وتجلس بجوارك، ويُخبرك أبي أنني أحبُّك أكثرَ منه، الكثيرُ من الأشياء حدثت في غيابِك يا جدي العزيز، أحببتُ أحدَهم، وأرسلتُ له الخطاباتِ السِّرِّيَّة كما أفعل لك الآن، أتشاجر مع أخي كثيرًا، إن كُنتَ هُنا، كنتُ سأحبُّ أن تقرصَ خدَّه، وتضربه بعصاك، وتُخبره: "كُلُّه إلا أستير" وتُعانقني، وإن أزعجني مَن أُحبُّ، تُخبره أنَّ ليلتَه سوداءُ، أسودُ من قرن الخروب، الكثير من الليالي القاسية مرَّت على عائلتِنا يا

جدي، وانتقلنا من محافظةٍ إلى أُخرى، مات أخوك الأكبر،
وتزوَّجت ابنتُه أبي، وأنا نتيجةُ هذه المعادلة الغريبة
أنا مَن أحببتُك دون أن أراك، وأنا مَن تختلسُ النظرَ إلى
قصصك، وتسمعهم بالخارج يتهامسون عنكَ، منهم المُتذمِّر
من فعلتِك، فكيف تهجُر الوطنَ والعائلة؟ والبعض الآخر
يقول: "يا زين ما عمل" نظرًا للأحوالِ الاقتصاديَّة السيِّئة
هل عندك أنت أيضًا أحوالٌ اقتصاديَّة سيِّئة يا جدي؟ هل
رُمِيتَ في دولِ العالمِ الثالث، أم حظُّك أخذَك إلى بلادِ
الخواجاتِ، وأخذتَ الجنسيَّة والحبيبةَ من هُناك؟ هل تُحبُّ
بلدَك يا جدي أم تشعر بالغُربة؟ هل حدَّثتَ زوجتَك عنَّا أم
شعرتَ أنَّنا لا نستحقُّ أن نكون جزءًا من قصَّتِك الجديدة؟
أتساءل يا جدي: على أيِّ عنوانٍ سأُرسل هذا الخطاب؟
سأُحدِّثُ ساعيَ البريد أن يبحثَ في الشَّوارع عن رجلٍ يمتلكُ
لحيةً خفيفة، وطولَه ضعفي مرَّتين، يحمل من التَّجاعيد ما
يكفي، يحمل على كتفيه أعتابَ الوطن، يتنفس الحنين، يبدو
على ملامحه الاغتراب، وقسوةَ الأيَّام، واشتياقَه لأمِّه وأبيه،
الذين يرقدون في مقابرِ عائلتِنا
عزيزي جدي، نحنُ نشتاقُ لكَ.

إنها إحدى المراتِ القليلةِ التي تمنى فيها لو استطاع البكاء، لكنَّ رجلًا مثلَهُ لا يبكي؛ لفرطِ غيرتهِ على دموعهِ، مهما فتكت به الآلامُ والأيامُ؛ لن يبكي أمامها

قالت له: لا أثقُ برجلٍ لا يبكي

اكتفى بابتسامةٍ، ولم يُبحِ لها أنه لا يثقُ بأحد، ولكنه يخشى أن يبكي أمامها، امرأةٌ مثلها تضعُكَ بين خيارين، أن تكونَ بستانيًا، أو سارقَ ورودٍ

لا تدري أترعاها كنبتةٍ نادرةٍ، أم تسطو على جمالِها قبل أن يسبقكَ أحدٌ ويأخذَها

امرأةٌ لا تهابُ الموت، لكنها تخشى أن تعيشَ شبهَ ميتةٍ،

فكيف لي أن أتعرى أمامَها؟

وردةٌ مثلها إن كشفتُ ضعفي لها ستذبل، لكنها تُهديني ما ينقصني لأحيا، تُهديني الرغبةَ كي يشرقَ عليَّ صبحٌ آخرُ وأراها، تجعلني أريدُ المثابرةَ كي أحصلَ عليها.

نحنُ من نبحثُ عنِ الحُبِّ أم هو من يجدنا؟
كان الحُبُّ ليس من ضمنِ أولوياتي، العواطفُ الجميلةُ التي شعرتُ بها معهُ لم تجعلني أُدرك ماهيَّةَ الحُبِّ، برغمِ ذلك، كلُّ نصوصي يتحشَّرُها الحُبُّ، أكتبُ عنهُ وأُفكِّرُ متى سأقولُ إنني حقًا وجدتُ ذلك الحُبَّ الذي نتغنَّى به؟ وأنا كلُّ ما أُحبُّهُ يرحلُ عني، كلُّ ما كتبتُ عنهُ مُتمنِّيًا حدوثهُ يختفي
أنا كنتُ ضحيَّةَ الحُبِّ، ذلك الشخصُ البسيطُ الذي لا يعلمُ عنهُ أحدٌ إلَّا أوراقهُ وحروفهُ، لا أحد هُنا يلومُ الحُبَّ غيري، ولا أحدَ يشتبهُ في نواياه الإجراميَّة غيري، كان للحُبِّ سلطانٌ فوقَ الشبهات، كان يغارُ منَّا يا عزيزي، أُقسمُ لك، رأى كيف حاربنا الجميعَ لنظلَّ معًا باسمه، وباسمهِ أيضًا تفارقنا
لو كنتُ أحببتُكَ أقلَّ، لو فقط تعلَّمتُ كيف أُحبُّكَ، لم يكن ليهزمنا حُبُّ الأساطيرِ الذي كان يحتلُّ عقلي، لم أستطعِ الموازنةَ بين حُبِّكَ والغرقِ فيكَ، أغوتني فراشاتُ الحُبِّ يا عزيزي، وابتلعتُهُنَّ بنهمٍ كطفلٍ جائعٍ، والآن أُحاولُ أن أنفُضكَ من معدتي ومن قلبي
هذهِ المرَّةُ الخطأ خطأي وحدي يا عزيزي، لو كنتُ فقط منعتُ نفسي عنوةً من الوقوعِ فيكَ، لكُنتَ هُنا الآن، مثلي لا يندمُ يا عزيزي، مثلي إن عَشِقَ، ولو احترقَ لن يبكيَ ويصرخَ، ولكني أصبحتُ فارغةً، نثرتُ في أرضكَ أكثرَ من اللازم، أحببتُكَ أكثرَ ممَّا ينبغي، ولم يخسر غيري هُنا، حتى قدرتي على الكتابةِ أصبحتْ تُزعجني

سئمتُ من الكتابةِ عن خيباتي وفشلي في المحافظةِ على أحلامي، أمثلي كُتِبَ عليه أن يكتب عن الراحلين فقط؟ يا عزيزي، لقد هزمني طريقكَ، مُغامرتي نحوكَ كلَّفتني قلبي، لا أقول - لا سمحَ الله - إنكَ لا تستحقُّ ذلك، ولكن أنا، أنا من لا يستحقُّ ذلك

هذه الصفحاتُ هي مُجرَّدُ تذكيرٍ لي؛ كي لا أندفعَ مُجدَّدًا، تحسُّبًا لأيِّ خسائرَ أخرى، لن أَجعلَ دفءَ العيونِ يغرُّني، هذه الصفحاتُ كتبتُها لي قبل أن أكتبَها لك.

كم هو مؤسفٌ أن تُهدرَ الكلماتُ الفصيحةُ، والأسلوبُ المُنمَّقُ على قصةٍ كخاصَّتِنا يا عزيزي، بها أُناجيك أن تقتربَ وأن تلتفتَ لقلبي، أنت دون غيرك، رُبما رأيتُ فيكَ ما خشيتُ الوقوعَ فيه يومًا، وجدتُ تلك اللهفةَ التي تجعلني أمضي نحوها مُتناسيةً زلَّاتي الماضية، وحدكَ كتبتُ له، تمرَّدتُ على قواعدِ اللغةِ والصرفِ والنحوِ؛ فقط كي نجتمعَ في سطرٍ ما، ولكنَّك تركضُ مني بينَ السطورِ، تُسرعُ لإنهاءِ القصةِ، وتَهُمُّ؛ لطَوي الصفحاتِ، تلكَ الصفحاتِ التي هي أكثرُ من الذكرياتِ، والحكاياتِ، والأفكارِ، فيها كَمٌ من جنونِ قلبي، واندفاعي نحوكَ، في كلِّ سطرٍ وجعٌ، وكلما مررتَ به؛ تطهَّرتُ منكَ، كما يتطهَّرُ الحاجُّ في الكعبةِ معَ كلِّ طوافٍ حولها، مِن كُلِّ ذنبٍ وقعَ فيه بإرادته، أو رُغمًا عنه، وأنا وقعتُ فيكَ رُغمًا عني، وأدعو الله أن يُسامحني، ولا يجعلني أندفعُ أبحثُ عنكَ في أشباهكَ التسعةِ والثلاثين.

لن تجد لديَّ الكثير، ولكن صدقني ما ستجده سيكون صادقًا، حقيقيًا، وأصيلًا
لن تجد ترفًا ولا كثرة كلماتٍ وعناقاتٍ، لكن ستجد قلبًا يعلم كيف يُقدِّر اللحظات البسيطة، وكيف يرى الودَّ والحبَّ في أصغر التفاصيل، ستجده خائفًا قليلًا، ويسألك من فترةٍ إلى أُخرى: أتحبني؟ أمللتَ وصالي؟
لن تجد الكثير بي، أعترف، وأنَّ قلبي خاوٍ بعض الشيء، ولكن به القليل من الحبِّ والأملِ ما يكفي ليُسعفك في أيامك الحزينة
لن أنهال عليكَ بالفراشاتِ والحديثِ المُنمَّقِ إلا في أيامٍ قليلةٍ، وفي أيامٍ أُخرى ستجد الحِبر الأسود تحت عينيَّ يطغى، ويُشتِّتك عن لونهما، ستجد الخدوش واضحةً في أوقاتٍ كثيرة، وفي أوقاتٍ أُخرى ستجدني ألمع من النجوم
لن تجد لديَّ الكثير، حتى حروفي أصبحت مُتربةً لا تستهويك لقراءتهم
لن تجد لديَّ الكثير، ولكن صدقني، لن تجد ما هو مُزيَّف أبدًا

أصحو في ارتباكٍ عظيمٍ لا ينتهي إلا بالوقوفِ أمام كَنكةِ البُنِّ على النار، مُدمِنٌ في انتظار الجرعةِ؛ فقط ليهدأ وقعتُ في غرامِ القهوةِ لأنها مشروبٌ فرديٌّ يُصنَعُ بحبٍّ، ويليقُ بشخصٍ كئيبٍ مثلي يُحبُّ التوحدَ والانعزالَ، يُرتبُ أفكاره على إيقاعِ رائحتِها، أو ينعزلُ في ركنِ غرفته مع السبرتايةِ مُحاولًا إيجادَ إجابةٍ لِـ"ليه؟" ولن أجد بالطبعَ، ولكنَّ رائحةَ القهوةِ تطغى على أفكاري، والسعادةُ تتصاعدُ تدريجيًّا مع كلِّ تفاصيلِها، المقاديرِ، الانتظار، تكوينِ وش القهوة، كلها تفاصيلُ تغويني، ومع أولِ رشفةٍ تشتبكُ حواسي؛ لأغوصَ مع الكوبِ في قصصٍ لا يعلمها سِوانا، أطبعُ عليه بعضَ القُبلاتِ، ويبقى أثرُ أحمر شفتيَّ عليه، ويبقى أثرُ البنِّ والتحويجةِ عليهما، وكأنها صفقةُ تبادلٍ، ليكون فنجاني مُميزًا عن كلِّ فناجينِ الجالسينَ بجواري، فأنا أُشاركُها أسراري، وموسيقاي، وهُم يرتشفون منها فقط، يستغلونَ تأثيرَها؛ كي يستيقظوا ويُمارسوا عملَهم، أمَّا أنا فأرتشفها مع عبد الحليم وهو يقول: "بصرتُ ونجَّمتُ كثيرًا، لكني لم أقرأ أبدًا فنجانًا يُشبه فنجانَكَ"

وأتساءل عن كَمِّ الأسرارِ التي سيتركها خلفي ذلك الفنجان، هل ستقرأه لي أمي وتُخبرني عن ذلك المجهولِ الذي سيأتي لي على حصانه؟ أم ستُخبرني أن حياتي مليئةٌ بالعثراتِ؟ أم ستُخبرني أن ذلك شركٌ بالله، وتأخذ الفنجانَ وتغسلَهُ من دون

أن أُكمل قراءةَ أسراري؟ ولكن المضحك أن دومًا فنجاني غيرُ مفهومٍ، به العديدُ من الخيوطِ المتشابكةِ وليس له قواعدُ مُحددةٌ، ولاً منطق، كالحبِّ، ولكنه سيبقى أحلى الأقدار، حتى إن كان لاذعًا

فمن أسراري مع القهوةِ أنها علمتني كيف نُحبُّ البذورَ المُرَّةَ قبل طَعمِها، أن نُحبَّ اللذعةَ لا اللذةَ، وأن نُحبَّ الليلَ الحالكَ لا الصباحَ المشرق، تضحك أمي على فلسفتي الغريبة، ويعلو صوتُ عبد الحليم وهو يُغني: "بحياتك يا ولدي امرأةٌ عيناها سُبحانَ المعبود، فمُها مرسومٌ كالعنقود، ضحكتها أنغامٌ وورود"

أغارُ مِن هذه الفتاةِ، وأتساءل: هل ستُغنى لي مثل هذه الأغنيةِ في يومٍ ما؟ هل سيُخبرني أحدهم: برغم مرارتِكِ أحببتُكِ يا عزيزتي، وأنكِ مُرةٌ كالقهوةِ ولكنكِ جميلةٌ؟ يا لَسخافتي!

تحدَّثتُ مع صديقٍ لي، أخبرتُه أنَّ شكلَ ندوبِ يدي يُزعجني، أشعرُ أنَّني "نصفُ فتاةٍ" بي دومًا شيءٌ ناقص، لا أستطيع إظهارَ يدي في العَلَن، ولا تصويرَ يدي مع كوبِ القهوةِ؛ كي أرفعَها على الإنستجرام، تبادلنا الأفكارَ حول "جلساتِ الليزر" وشجَّعني على فِعلِها، ولكنِّي فكَّرتُ قليلًا، أليست تلك الندوبُ شاهدًا على كُلِّ الأزماتِ التي مررتُ بها؟ شاهدةً على خروجي حيَّةً منها؟ لماذا أسعى لإخفائِها وهي تحملُ في ثناياها القصةَ كاملةً؟ ما عجزتُ عن قولِه لهم يوجدُ بها، وأنا شخصٌ يَعرفُ قُدسيةَ الذكرياتِ مهما كانت مُرَّة، تلك الندوبُ تجري بها رُوحي التي كانت على وشكِ أن تَخرُج، تجري بها العديدُ من القصصِ، أتذكَّرُهم جميعًا، لا أُخفيكَ سرًّا، كُلَّما نظرتُ إليهم تذكَّرتُ أنَّني شخصٌ ضعيفٌ غيرُ قادرٍ على حمايةِ نفسِه، شخصٌ يدَّعي القوَّةَ ولكنَّه يرتجفُ خلفَ القناع، أتذكَّرُ عددَ المرَّاتِ التي لم أستطع فيها الصراخَ بهم وأخرجتُ صراخي في يدي، أتذكَّرُ عددَ المرَّاتِ التي لم أستطع فيها قولَ "لا" أتذكَّرُ حديثَك عندَ هجركَ لي، الذي أحدثَ بداخلي صَخبًا أكثرَ من الذي حدثَ بيدي، ألا يحقُّ لهذه القصصِ الخلود؟ ذلك الأثرُ أثمَنُ من أن يُمحَى.

يا عزيزي، ما رَغِبتُ سِواكَ، حتى إن مَنَحَني القَدَرُ ذلك الحُبَّ الشَّرِه، ذلك الحُبَّ المُصابَ بالأرَقِ، حُبًّا عَدوَ الأَسِرَّة، يَجعَلُني طِيلةَ الليلِ أُفَكرُ فيكَ، ويَجعَلُ قَلبي يَصرُخُ بِهَستيريا طَوالَ الوَقتِ؛ بأنَّه لا يَنالُ كِفايتَهُ منكَ، حُبًّا يَجعَلُ دُموعي تَهرُبُ مِنِّي مِن مُجرَّدِ فِكرةِ اعترافِكَ لي بِحُبِّكَ، حُبًّا كَهذا يَموتُ صاحِبُهُ مِن أَثَرِ الرَّكضِ الزّائدِ، ويَموتُ إذا نَفِدَ احتمالُ الطَّرفِ الآخَرِ ومَلَّ

لذلك اعذُرني يا عزيزي إن كُنتُ أمُرُّ مِن جَانبِكَ وتَفوحُ مِني رائِحةُ الخَوفِ، أنا امرأةٌ مُستَوحِشةٌ مِن العَلاقاتِ، وأنتَ رَجُلٌ يَعرِفُ كيفَ يُهدِئُ مِن رَوعي، فَكيفَ لي ألّا أُحِبَّكَ؟

عزيزي، ذلك خِطابٌ أُرسِلهُ لكَ، ولا أعلمُ متى سيصلك
أنتَ الرجلُ الوحيدُ الذي أحببتهُ، وواظبتُ على حُبِّهِ رغمَ
أنفي في كثيرٍ من الأوقات
في حالِ موتي، أو في حالِ أنَّكَ فقدتَ رغبتكَ بي، أو في
حالِ باعَدتنا الدنيا ولم تعُد تُحادثني، تأكّد أنني كنتُ مُحظوظةً
بالقدرِ الكافي لوجودِكَ في حياتي، مُحظوظةً إن حدَّثتَ أحدًا
عني، وأخبرتَهم:
"كنتُ أُحبُّ امرأةً اسمُها أستير، كانت تُعدُّ القهوةَ كلَّما ضاقت
بها الدُنيا، وكلَّما اشتاقتْ لي، كانت تحلمُ أن تتزوَّجَ ذلك
المُطربَ المشهورَ الذي لا يعلمُ بوجودها على كوكبِ
الأرضِ من الأساس، ولكنني أنا من أخذتُها، وذلك لحُسنِ
حظِّها بالطبع، كانت مُولعةً بالقراءةِ والكتابة، لم أكن أقرأ
طيلةَ الوقتِ لها، ولكني كنتُ أحبُّ أن أتواجدَ دومًا في أيِّ
مكانٍ تضعُ فيهِ بصمتها، كنتُ أُحبُّها وأردتُ أن أتزوَّجَها،
على الرغم من جهلِها بقواعدِ الطهي، وأنها لا تُفرِّقُ بين
التوابل، ولكنَّني رغمَ ذلك، أحببتُها"
في حالِ لم تتسنَّ لنا الفرصةُ لنلتقي مُجددًا، اعلم أنَّكَ كُنتَ
أجملَ شيءٍ حدثَ لي في هذه الحياةِ الغريبةِ وغيرِ المفهومة،
ورُبما نتلاقى في الجنةِ، كما كُنتَ تُخبرني، حيثُ هناك كلُّ
الأمانِ وكُلُّ اليقين، ولن تُبعِدَنا مسافةٌ ولا أشخاص
اعلم أنني أُحبُّ ذقنكَ الخفيفةَ وطولكَ الذي يفوقُني، أُحبُّ
اللونَ الأسودَ عليكَ، أُحبُّ غرابتكَ وصمتكَ في كثيرٍ من

الأحيان، أُحبُّ رائحتكَ، رغمَ أنني لم أُعانقكَ ولم تتسنَّ لي الفرصةُ لمعرفتِها جيدًا
عزيزي، مثلي لا يجدُ كلماتٍ سعيدةً لنهاياتِه، دومًا يُصاحبني سوءُ الأقدارِ والنهاياتُ غيرُ المُكتملة، لذلك أخشى أن تكونَ فقط مجردَ صفحةٍ مقطوعةٍ من روايةٍ ما، ولكن رغمَ ذلك، رغمَ الاختلافاتِ التي بيننا، رغمَ ضعفي وقوَّتِكَ، رغمَ إيمانِكَ وإلحادي، كيفَ كان من المُمكنِ أن نلتحمَ، ونقعَ في الحُبِّ؟ كم سيكونُ مؤسفًا إذا لم تُوضَع نقطةُ النهايةِ ونحنُ معًا، وكيفَ ستكونُ الحياةُ خلفَ السِّتارِ إذا لم ينسدل ونحنُ بجانبِ بعضِنا؟ وكم سيكونُ مُخزيًا للحُبِّ إن سمحَ بفراقِنا، وكم سيكونُ مُرعبًا إذا لم نتفارق!
عزيزي، في حالِ جفافِ حِبري، وذبولِ قلبي، إن شابَ شعري، وإن ضَعُفَ نظري، إن لم أحظَ بسعادةِ أن أُلقَّبَ زوجتَك، وإن أُعجبتَ بغيري، وإن مِتُّ أنا، وإن ابتلعتني أفكاري، وإن غِبتُ طويلاً، تذكَّر أنني دائمًا أُحبُّكَ، وأنتَ دُونَ غيرِكَ مَن تركَ بصمتَهُ على قلبي، وحدكَ دونَ غيرِكَ مَن أكتبُ له، رغمَ عدمِ بلاغتي الكافية، رغمَ تحذيراتِ أُختي، رغمَ فشلي في الحُبِّ، أكتبُ لكَ، أتعي ذلك يا عزيزي؟
ذلكَ المُرسالُ سيظلُّ هُنا، إن مِتُّ أنا ولم تتسنَّ لكَ الفرصةُ لتوديعِي، فالحروفُ لا تموت، إن مِتُّ قبلَ أن أسكنَ معكَ

وأُعدَّ لكَ القهوة، قبلَ أن نسكنَ في بيتٍ في الغابةِ، وقبلَ أن
أحتضنَك، فسيظلّ هنا
إن لم تقرأهُ، فسيظلُّ هنا أيضًا.

آهٍ يا عزيزي، يا حسرتي التي لم تجفَّ، وحياتي التي لم أعشها، كيف هان عليك أن تتركني، وأنتَ الذي خِفتَ أن يأتي يومٌ ويخلو البيتُ مني؟ أحاول أن أُحصي الآن ما تركته لي من خسائرَ فادحةٍ، وعُمرٍ حزينٍ، تركتَ لي خدرًا لذيذًا وانقباضةً مؤلمةً في القلب، وترك غيابُكَ الطويلُ وقتًا أكثر من كافٍ لأُفكِّر في كلِّ الأسئلةِ الممكنة وغير الممكنة، الأسئلةِ التي تحزُّ كسكينٍ، والأخرى التي تَخِزُ كالإبر، كنتُ أديبةً وكاتبةً، وكنتَ فخورًا بي، لكنك تركتني وحدي مع حروفي أرثي رحيلَك، وأشردُ أنا وحروفي الضالة لنجد كلماتٍ لنصفَ هذه النهاية.

تعلمون أنَّ التفكيرَ لعنةٌ؟ وأنا أُفكِّرُ وأُفكِّرُ يا أعزَّاء، أُفكِّرُ بلا هُدنةٍ، وآهٍ لو تعلمون مرارةَ أن تغتالكَ أفكارُك بلا سابقِ إنذارٍ، اليومَ مثلاً قرَّرَ عقلي أن يهزَّ ثباتَ علاقتي بفلانٍ، أخبرني أنَّ الوعودَ كاذبةٌ، ولا يوجدُ ما يُسمَّى أمانًا، وأنَّ جميعَنا سيئون ولكننا ننتظرُ الوقتَ المناسبَ لإظهارِ ذلك، أخبرني أنَّ البشرَ مُزعجونَ، وأنَّ الكونَ لا يتَّسعُ لشخصٍ مثلي، لا أُخفيكم سرًّا يا أعزَّاء، فكَّرتُ أن أُلقيَ نفسي أمامَ سيارةٍ ما، ويكونَ مجردَ حادثِ سيرٍ عابرٍ، ولكن إن فعلتُ ذلك، هل ستدافعونَ عني؟ هل ستمنعونهم عن وصفي بالكافرِ؟ هل ستُعَادُونَ الشُّعراءَ؛ كي لا يتغنَّوا باسمي في قصائدِهم التعيسة؟ هل ستخبرونَ أمي وأختي أنني كنتُ أُحبُّهُما؟ وأنني حاولتُ، أُقسمُ حاولتُ، ولكنَّ الحياةَ كانت أقوى مني، حاولتُ تقبُّلَها، ولكنَّها لم تتقبَّلني، ووزِّعوا ملابسي على المُشرَّدين، وأخبروهم أنني تمنَّيتُ ألَّا أجد أحدًا مُشرَّدًا في هذا العالم، أحرِقوا مُذكِّراتي، ولا تجعلوا أحدًا يقرأُها، أرسلوا كُتُبي إلى المكتبات، وأخبِروهم أنَّ هناك أحدًا في بلدةٍ ما كان مُولَعًا بهذا الذوقِ الغريبِ من الكُتُب، لا تنظر إليَّ هكذا يا عزيزي، أنا لستُ من الأشخاصِ السوداويِّين الذين يُنادون بالانتحارِ في كتاباتِهم، ولا أنا من مُشجِّعي إنهاءِ الحياة، أعلم أنَّها تستحقُّ، وأنَّها جميلةٌ، ولكنَّها لا تُناسبني أنا، ولا أفهم لماذا.

إياكم والإفراطَ بالوعي؛ فالوعيُ كارثةٌ، حاولوا أن تتمتَّعوا بالكثيرِ من الجهلِ والبلاهةِ، ولا تفكِّروا إلَّا في الزواجِ، وانضمُّوا إلى الروتينِ السخيفِ الذي اعتادَ عليه الناسُ، تزوَّج صديقتَكَ في العملِ أو ابنةَ عمَّتكَ، وادرسْ في كليةِ الطبِّ كما أخبركَ أبوكَ، واعمل مع خالكَ كما أخبرتكَ أُمُّكَ، أُنجب طفلًا إلى هذا العالمِ وربِّهِ جيدًا، وسمِّهِ على اسمِ جدِّكَ، ولا تكُن مع أنصارِ اللَّاإنجابيةِ، أُقسمُ لكم لو عادَ الزمنُ لما قرأتُ كتابًا واحدًا، ولما تعمَّقتُ في نفسي، ولما اخترتُ تخصُّصَ علمِ النفسِ، ولما قرأتُ عن الأديانِ أو ثقافاتِ البلادِ الأُخرى، لن أقرأ عن أحداث سوريا وفلسطين واليمن، بل سأهتمُّ بطلاءِ أظافري وباختيارِ ألوانٍ تليقُ مع بشرتي، سأتزوَّجُ ابنَ عمِّي وأعيشُ حياةً ريفيَّةً بسيطةً بعيدًا عن صخبِ المدينةِ، وبعيدًا عن الانقلاباتِ والثوراتِ، أُقسمُ لكم أنَّ الوعيَ يدفعنا نحو الجنونِ رُغمًا عنَّا.

لا أنتَ بعيدٌ، فأنتظِرَكَ، ولا أنتَ قريبٌ، فألقاكَ، لا أنتَ هنا،
فيهدأ قلبي، ولا أنتَ هناك، فأتركَكَ حيثُما أنتَ
عزيزي المُبَجَّل،كنتُ أنسى أو أتناسى حجمَ الجُرحِ الغائرِ
داخلَ قلبي، ولكنَّ مُراوغتَكَ لي، ونظراتِكَ المُتناثرة،
وضحكاتِكَ الخافتة،تجعلُ قلبي يلتفتُ عنوةً عني، ما زِلتُ
أهربُ من كلِّ الأماكنِ التي جلسنا فيها معًا، وما زِلتُ أتفادى
التواجدَ مع أصدقاءٍ مشتركين، أتهربُ من مُحاضراتي؛ لأنَّ
التواجدَ معكَ في مكانٍ واحدٍ يُشوِّش إشارةَ عقلي، ويُربِكُ
قلبي

أحيانًا أحقدُ على كلِّ العاشقينَ حولي، لماذا أنا التي لم يُنصفها
الحُبُّ؟ أنا التي تُحرَقُ بنارهِ ولوعتِه، جميعُهم يحظَونَ بدفئِه
وحنانِه

هذا ليس عدلًا! ماذا فعلتُ كي يحرمني الحبُّ منكَ؟ أنا التي
كنتُ أقفُ في أوَّلِ الصفوفِ؛ كي أكتبَ عنه وأُغازِلَه، أنا
التي فَتنتُ الناسَ للعشقِ، من دونِ نصوصي، لِما كانوا
سيلتفتونَ وعيناهُم تلمعُ، وقلبُهم مُتعطِّشٌ للحُبِّ، وبقيتُ أنا هنا
وحدي أُحصي خوفي من المستقبلِ الذي سيكونُ خاليًا منك
أخشى مرورَ السنينِ، أن يشيبَ شعري، أو يشيخَ قلبي، وأنا
ما زِلتُ أنتظرُ قدومَكَ

أحاولُ ألا أنفرَ من جميعِ بني جنسك بسببِ غلطةٍ، دعني
أقولُ إنها عظيمةٌ في حقي وفي حقِّ حُبي لكَ.

لا أعلمُ كيفَ تركتني وذهبتْ لأَحَدٍ مِن هؤلاءِ الرِّجالِ المُهذَّبِينَ، لا أُحبُّ ذلك النَّوعَ مِنَ الرِّجالِ، أُولئكَ أصحابَ الابتساماتِ العاديَّةِ، لا يَلفِتُ انتِباهي أبدًا أصحابُ الزِّيِّ الرَّسميِّ والشَّعرِ المُصفَّفِ، الذين يتحدَّثونَ عنِ الحياةِ كأنَّهم يَقرأونَ كتابًا، أبتعِدُ عن مُدَّعي المثاليَّةِ أو حتى الذينَ يُحاوِلونَ السَّيرَ على خَطٍّ مُستقيمٍ طوالَ الوقتِ، ذلك النَّوعُ لا يَستهويني، فأنا مُغرَمٌ بالتَّخبُّطاتِ والانحِناءاتِ، أعلمُ أنني تكوَّنتُ بسببِ التخبُّطِ يَمينًا ويَسارًا، لذلكَ لا أُنبهرُ بالمثاليَّةِ، هؤلاءِ العاديُّونَ الذينَ لا يَرتجِفونَ للموسيقى، ولا تَهزُّهم روايةٌ، لا يَعترِضونَ ولا يَمتلِكونَ رأيًا، لم يُجرِّبوا الهروبَ مِنَ المدرسةِ، ولا تَعلَّقَ أَحدُهم بسيَّارةِ نقلٍ وهي تَركُضُ بسرعةٍ جُنونيَّةٍ، حتى أحلامُهم لا تَتجاوزُ الزواجَ والحياةَ في سلامٍ بعيدًا عنْ روحِ المُغامَرةِ، وأنا أمقُتُ ذلكَ النَّوعَ مِنَ الرِّجالِ، مشكلتي دائمًا مع أشباهِ الرِّجالِ، لا أستطيعُ تَقَبُّلَ فكرةِ أَن يَعجِزَ رجلٌ عن اتِّخاذِ قرارٍ مصيريٍّ في حياتِهِ، لا يستطيعُ التقدُّمَ للفتاةِ التي يُحبُّها خَشيةً مِنْ رفضِها له، لا يستطيعُ مُعارضةَ أَهْلِهِ؛ كي يَحصُلَ عليها، كيفَ تركتني وذهبت له؟! اللَّعنةُ! أَنا مَن كنتُ سأحميها، وأُبعِدُ الحُزنَ عن قلبِها، ليسَ ذلكَ المُثيرَ للشَّفقةِ، الذي يستيقظُ في السَّابعةِ صباحًا ليذهبَ لعملِهِ، ويُرسِلُ لها "صباحَ الخيرِ" مع وردةٍ، ذلكَ الذي لا يَعلَمُ شيئًا عن الفَلسفةِ، أُقسِمُ أَنَّه يُحادِثُها عن ألوانِ الشَّقةِ فقط، لا يُحدِّثُها عنِ الصَّدماتِ النَّفسيَّةِ، والعقولِ،

والأديانِ، لا أتخيَّلُ تلكَ المُبهرةَ مع أحدٍ غيري، تلكَ التي تَتطلَّعُ للحرِّيَّةِ، وتَهوى الفَنَّ، تَكرَهُ استبدادَ الرِّجالِ وأوامرَهُم، ولا أكذِبُ، فمعها كانَ يَصِلُ استبدادي لصَخبِ السَّماءِ، ولكن كيفَ لا أفعَلُ؟! وهي تُحفَتي الثَّمينةُ.

سألني بسخرية: شخصٌ مثلكِ تَشِعُّ الحياةُ من عينيهِ، كيف يُفكِّر في إنهاءِ حياته، ولماذا يفشلُ في كُلِّ مرةٍ؟
لأني يا عزيزي أُحبُّ الحياةَ، بكلِّ بساطةٍ أُحبها، وُلِدتُ في منزلٍ يَخشَى الحريةَ، يَخافُ من الغناء، وتُرعِبُه أصواتُ الجماهير، يَكرهونَ الصدقَ، ويكذبونَ على بعضِهم معَ كلِّ شهيقٍ وزفيرٍ، فقط كي يَظلُّوا في صورةِ القُدسيةِ التي رُسِمَت لهم، كُلُّ من فيه يعرفونَ اللهَ أنه جبارٌ عنيد، ليس غفورًا رحيمًا، كلُّ من فيه يَرفضونَ أفعالي، ويرونني مُتمرِّدة، وحُريةُ فِكري الزائدةُ ستجلبُ لهم العارَ يومًا، العار؟ تلك كلمةٌ غريبةٌ لتُطلَق على خيبةِ أملِهم فيّ!
لم أتحرَّر منهم إلا في سطوري، أشعر هنا أنني على قيد الحياة، قد يبدو لك أن محاولاتي آلت إلى الفشل، ولكنها نجحت منذ زمنٍ
سؤالك الأهم الذي كان من المفترض أن تَسأله، هو: كيف ما زالت عيناي تُشعُّ بالحياة رغم تلك المحاولات؟
رُبما الحياةُ هي من تُحبُّني رغم فشلي في فهمِها، وإدراكِ كم هي لاذعةٌ، ولكنها جميلةٌ أيضًا وقد يَكمُن معناها في غموضِها، وفي مُراوغتِها لي، كُلما أتقدمُ نحو ما أريدُ خطوةً، تسحبه للخلف ثلاثَ خطواتٍ
وهذا هو الحال، الناس يقولون: "يوم ليك ويوم عليك" ولكنها عليَّ منذ ثلاث سنواتٍ، ومعي يومٌ فقط

أرأيتَ يا عزيزي؟ الحياةُ جميلة، تجعلنا نبتكرُ النكاتَ بكافة ألوانِها، الأسودِ، والأبيضِ، والوردي، ألا تستحق أن تُعاش؟

ليتني كنتُ أكثرَ صدقًا معكِ، ليتني أحببتُكِ وضممتُكِ؛ كي لا تَشتهي أحضانَ الغُرباء، كي تعلَمي ماذا يعني أن تكوني مع رَجُلٍ تُحبِّينه، لا تهابينه، يحميكِ من الغُرباء ومن نفسكِ، يُغرقكِ بكلماتِ الحبِّ، لا أعلم كيف قسوتُ عليكِ، أغراني مُسمّى الرجولة، تصنّعتُ القسوة وتَحجُّرَ القلب، لم أخلع عباءةَ الشرقيِّ المنسوجةِ بحبالِ الوعيدِ والتهديد، ولم أقوَ على أن أُحبَّكِ بصدقٍ، وكلما قادني قلبي إليكِ؛ دهستُه وأدرتُ وجهي عنكِ، لم أتذوّق حُضنكِ يا صغيرتي وأنا الأحقُّ به أعذريني يا صغيرتي، أطلالٌ من الأعذار أسكبُها تحت قدميكِ، أنا الذي جعلكِ تنفرينَ مني ومن جميع بني جنسي، أنا الذي جعلكِ تَشتهينَ الرجالَ ذوي الأربعين عامًا؛ كي تَرَيني بهم، كي تفلحي معهم فيما فشلتِ به معي، أنا الذي لم أُغيّر جلدي لأجل أبديةِ الوجودِ معكِ، أنا الذي جعلكِ تبحثينَ عن إجاباتٍ لأسئلةٍ لم تُطرح عليكِ

أعذريني يا صغيرتي، أنا لم أتعلّم عن الحبِّ غير أنّه يُضعف المرءَ ويُظهر منه نسختَه السيئة، أنا رُبِّيتُ هكذا فقط

أنتِ حبيبتي، وابنتي، أنتِ طفلتي التي بلغت التاسعةَ عشرة، أنتِ أعقلُ طفلةٍ وأجملُ امرأة، لا أعلم كيف ضيّعتُ رَبيعَ حياتكِ وأنتِ بعيدةٌ عني، كيف جعلتُ غيري يروي زهورَ قلبكِ، ولكني كلما نظرتُ داخلكِ رأيتُ طفلتي الجميلة التي كانت تجلس على قدمي وأُحضِر لها الكثير من الألعاب، كان

الوقتُ ينضجُ في عقلكِ فقط لا في شكلكِ، في قلبكِ لا في طفولتكِ، أنتِ ما زلتِ تمتلكين البراءةَ التي وُلدتِ بها يا صغيرتي، هل تُسامحيني لعدم قُدرتي على حبِّكِ، رغم رغبتي في ذلك؟ هل تُسامحيني على غيابي في أمسِّ حاجتكِ لي؟ هل تغفرينَ لضعفي وجهلي؟

خُضْتُ نِقاشًا مع أُمِّي، دَعينا نتغاضى عن وَصفِها لي بمتحجِّرةِ القلب، المُهمِلة، وبعضِ الأشياءِ الأُخرى، ما جعلَ عقلي يتوقَّف عندَه هو حَسرتُها عليَّ، أخبرتني أنني لا أستطيعُ الحُبَّ، وإنِّي إن فعلتُ لتغيَّرت حياتي وتغيَّرتُ أنا أيضًا، ولن أكون بهذه النُّسخةِ السَّيئةِ التي تُبغِضُها، وافقتُها الرأي، أنا حقًّا لا أستطيعُ الحُبّ، مَعرفتي عنه تكادُ تكونُ منعدِمة، أنا أندفعُ وأغرَقُ، لا أُحبُّ، أخبرتني أنني لو سمحتُ للحُبِّ أن يَدخلَ قلبي؛ لأزهَرَ وتغيَّرتْ طِباعي السَّيئةُ، سيَهدَأُ غضبي، وسيبتسمُ وجهي، ولن يكونَ كما تُخبرني "يقطع الخَميرة من البيت" ولكنني حاولتُ يا أُمِّي ولم أفلح، ولم تكن محاولاتي إلا وصمةَ عارٍ في صَحيفتي، فَتَحتُ أحضاني للحُبِّ، ولم يستقبلني بالقُبُلات كما أخبرتِني، بل صفَعَني، طِباعي السَّيئةُ التي أُلقَّب بها الآن، لو رُوِّضتْ وقتَها، لما كانت ستُصبِحُ وحشًا كاسرًا يَجعلكِ لا تودِّينَ النظرَ إليَّ بسببه مَن مِنَّا لا يرغبُ أن يُحَبَّ؟ مَن لا يُحِبُّ أن يُعجبَ أحدٌ بعَينَيه، وتُصبِحَ تفاصيلُه العشوائيةُ محورَ يومِ شخصٌ آخر؟ وإن كانَ مَحظوظًا وأحبَّ كاتبةً مِثلي، مَن لا يُحِبُّ أن تُهدَى له القَصائدُ والخَواطر؟ ولكن لكلِّ شيءٍ ضريبةٌ يا أُمِّي، أتذكر آخرَ مرَّةٍ اندفعتُ فيها تجاهَ شَخصٍ، من وقتِها وقلبي مُهشَّمٌ، مَثقوبٌ، أترغِبينَ أن أبحثَ عن هَلاكي مرَّةٍ أُخرى؟

حاولتُ اليومَ كتابةَ رسالةٍ ورقيةٍ لشخصٍ أُحبّه، أخذتْ مني ساعاتٍ رغمَ قلّةِ حروفِها وصِغرِ حجمِ الورقةِ، ولكني أطلتُ بها، أُحاولُ انتزاعَ الحروفِ عنوةً من داخلي، أُحاولُ أن أُعطيَ بعضَ المشاعرِ بدلًا من تركِها مُكدّسةً ويملؤُها الغبارُ، ولأنّه يستحقُّ أن أُخبرَه أنّني أُحبّه، وأنتظرُه، وسأظلُّ معه دائمًا

ولكن لا أُخفيكَ سرًّا، مع كلِّ حرفٍ يخرجُ مني كان يُفتش عن ذكرى قديمةٍ، تذكّرتُ هديةَ عيدِ ميلادِك التي أعطيتُها لك، كانت عبارةً عن مراسيلَ، كلُّ يومٍ بمرسالٍ جديدٍ، بمشاعرَ جديدةٍ، مشاعرَ طفوليةٍ بريئةٍ ومُقدّسةٍ، أنتَ كُنتَ أولَ حُبٍّ لي، أولَ مشاعرَ، وأولَ كلِّ شيءٍ، كُنتُ أكتبُ لكَ بشغفٍ ولهفةٍ، لم أكن أتفاخرُ ببراعتي في الكتابةِ، بل كُنتُ أتفاخرُ بحُبّي لك، وقتها لم أكنْ أديبةً أو شاعرةً، وقتها كنتُ فقط أُحبُّك

نسجتُ لكَ حُروفًا من لا شيءٍ فقط لإسعادِك، كلُّ من كان يقعُ المرسالُ في يديه كان يُخبرني: "هو محظوظٌ بكِ"، وأبتسمُ بخجلٍ، أحقًّا؟ أنتَ محظوظٌ بي؟ يعني أنا شخصٌ جيدٌ لك؟ أنا أفضلُ من غيرِهنَّ عندك؟ كانت تملؤُني الفرحةُ ولكنّها لم تكتمل، وجدتُ مرسالي مُلقىً بين أغراضِك القديمةِ ومُمزَّقًا منه بعضُ الصفح، أخبرتَني: "شقاوة أطفال بقا، هبقى ألزقهم وأقراهم" أخبرتُك: "لا بأس" ولكن كما قال درويش: "كلُّ البأسِ كان بقلبي" مرّت ثلاثُ سنواتٍ وما زال

مرسالي مُلقى ولم تقرأ حرفًا منه، وكأنّ الليالي التي قضيتُها
في كتابتِه لكَ لم تعنِ لكَ شيئًا
دعك من الليالي، ماذا عن مشاعري التي هُديتْ لكَ، أنتَ
دونَ غيرِك! لا أعلمُ كيف يمكنُ أن تقرأها الآن، وأنا لا أعلمُ
شيئًا عنكَ سوى اسمِكَ، كيف وستكونُ المشاعرُ فاترةً يملؤُها
الغبارُ؟ أتمنّى حقًّا لو استعدتُ المرسالَ ومزّقتُه، أو احتفظتُ
به، لا فرق، ولكن كي أحميَ حُرمةَ مشاعري منك
أنتَ لا تستحقُّها، وحسرتي الكُبرى أنّك أخذتَ مني بدايةَ كُلِّ
شيءٍ، ونهايتَه أيضًا، وتركتني هكذا فارغةً، رُبما غيرُك كان
أحقَّ بمشاعري تلك.

أستير العزيزة، أعرِضُ عليكِ عرضًا ذهبيًا، فرصةً لا تتكرر، ولا تمنحها الحياةُ لأحد، سأجعلكِ تسافرين ساعةً في الماضي، ساعةً فقط.. أيَّ ساعةٍ ستختارين؟

أخذني التفكيرُ كثيرًا في أيِّ ساعةٍ سأختارها؟ ولماذا سأختارها؟ هل لأُعيد إحياء الشعور بداخلي أم لأُغير خطأي الفادح وقتها؟ لا أعلم يا عزيزي، كثيرٌ من اللحظاتِ أودُّ الرجوعَ إليها، تلك اللحظة التي عانقتُ فيها صديقي المُفضل، قبل أن يختارَ طريقًا فرعيًا لا يؤدي إلى حياتي، قبل أن يقسو قلبه عليَّ وينسى أيامًا بها أحببتُه

رُبما أختارُ تلك الساعة التي كنتُ فيها في حُضنِ أبي، عندما كان يحملني ويجول بي في القرية، ويحضر لي ما أرغبُ من الحلوى، يُحذِّرني من تسوسِ أسناني ويُنبهني ألّا أُكثر منها، لتلك الساعة التي كنتُ فيها الابنة المُدللة، والأختَ الجيدة، والصديقةَ الوفيّة

ورُبما أعودُ لأُغير مساري، أمنع قلبي من أن يقعَ بكَ، أو رُبما سأختار تلك الساعة التي كان قلبي فيها نقيًا، لا تملؤه الشوائب، حين كان مِعطاءً ولا يخشى الحب، حين كنتُ أنا، قبل أن تُضاف إليَّ تلك التحديثات الغبية، حين كنتُ سعيدة، تلك السعادة النقيّة التي لا أستطيع الحصول عليها الآن مهما فعلتُ

عندما كنتُ لا أهتمُّ لرأي الناس بي، عندما كنا مُجتمعين بأصدقائنا قبل أن تُفرقنا الجامعةُ والتنسيقُ، والأحلام، ولُقمة

العيش، حين كنتُ أستطيع النظر إليك بكل حبٍّ دون أن أحمل لكَ بداخلي الكثير من البغض والغضب
رُبما أرغبُ في الرجوعِ لتلك الساعة التي قُلبتْ بها حياتي رأسًا على عقب، كي أُمسكَ زمامَ الأمور ولا أجعلها تُفلت من يدي
رُبما أعودُ لأبحثَ عن تلك الساعة التي فُقِدتُ بها، كي أمنع كلماتهم السخيفة التي محتواها "ماذا حدث لكِ؟ أنتِ لستِ أستير التي نعرفُها" إذن أين أنا يا رِفاق؟ ما دُمتُ لستُ أنا التي معكم، ولستُ أنا التي كانت معكم، إذًا في أيِّ حقبةٍ أجدني؟
لولا إدراكِ أنَّ التجاربَ هي ما تُشكلنا لجزعتُ من رائحة خيبات الماضي التي تتخللني، لجزعتُ مني، وظللتُ أُرثي حياتي وأُفكر وأُفكر في كل الأشياء التي أودُّ تغييرَها، ولن تكفيني ساعةٌ واحدةٌ للرجوع إليها، إنما سأختار أن أُخلقَ من جديد، ولكن السؤال هنا، هل إذا مُنِحتُ هذه الفرصة، ستكون حياتي خاليةً من الزلات والعثرات؟ سأكون على الصراط المستقيم؟ لن أتعثر بكَ ولا بهم؟ ولا بأيِّ خيبةٍ تُنقش على قلبي؟ هل سأُغير من نفسي ولن أُعاود أخطائي بنفس الدقة مرةً أخرى؟ لا أتوقع ذلك.

أخبرني أحدُ أصدقائي أنه مُغرَمٌ بكتاباتي، ولكنه يجد فيها بعضًا من التزييف، أخبرته: أيُّ زيف؟ لا أفهم، فأجابني أننا أصدقاء مُنذ زمن، وهو متأكدٌ أنني لا أُخفي عليه سرًّا، إذنْ كيف يرى في نصوصي أشياء جديدة لا يعلمُ عنها شيئًا؟ حُبٌّ قديمٌ فقدتُه، خذلانٌ وكسرةُ قلبٍ، محاولةُ انتحارٍ، وأشياءُ لم تحدُث، أخبرته بلماضة: متأكدٌ أنها لم تحدث؟ أجاب بدون أن يُفكر: "نعم" ورُبما هو مُحق، حاولتُ أن أشرح له أنني حين أكتُب أكون حقيقيةً ومُجردةً من التزييف، إلا أنني أُحرج، لذلك ألعب بالتفاصيل، أُغيِّر الأسماء وأروي نفس القصة، ألوم فلانًا وأنا أقصد فلانًا الآخر، أُعاتب صديقي بصيغةٍ مؤنثةٍ كي لا يتحسس، وكي لا أخترق حقوق الطبع والنشر، لأنني مهما كنتُ حقيقيةً ولا أُفكر إلا فيما أكتُبه، فأنا ما زِلتُ ذلك الشخص الذي يخاف على مشاعر الآخرين، حتى لو سرًّا، ولن يعرفوا أنهم المقصودون بحديثي

أقسمتُ له أن ما أكتبه حقيقيٌّ مئةً بالمئة، وهذه حياتي، وإن الله أعطاني قُدرة الكتابة عمّا يحدث لي فقط، فلم أستطع يومًا الكتابة عن شيءٍ لم يُلامس قلبي ولم يحتل حواسي، ولكن كما قُلت، أنا أكتُب بطريقةٍ تُناسبني؛ طريقةٍ لا أُهاجم بها، وطريقةٍ لا تجعلهم ينظرون لي بعيونٍ ممتلئةٍ بالشفقةِ، أنا لا أكتُب لغرض الاستعطاف، أو الصراخ بأحد، أو طلب النجدة، أنا أكتُب لأن هذه أنا، أعلم أنه سيأتي وقتٌ وسأختفي، لذلك أُريد أن يتذكرني أحدٌ في مكانٍ ما ويقول: "كان هناك

فتاةٌ اسمُها عجيب، كُنتُ أُحب أن أقرأ لها، لم تكُن ضليعةً، ولكنها كانت تُلامس قلبي بحروفها" أُريدُ أن أُخلِّد ذكرى ما حدث؛ فما خدش قلبي ليس هينًا كي لا يُخلَّد، ومن أحببته ليس بلا قيمةٍ كي لا أكتُب عنه، ما في حياتي مِن أشخاصٍ وتجارب، من سيذكُرهم إذا لم أفعل أنا؟ فهمتَ يا صديقي؟

لا تُفجِعُني رسائلُ الانتحارِ عادةً، فلقد اعتدتُ على قراءتِها في الرواياتِ الفلسفيةِ، وفي القسمِ الذي أدرُسه، ولكن هناك شيء يجعلني أتساءل، ما الذي يدفعُ شخصًا للانتحار؟ جميعُ البشرِ يُعانون، نحن خُلقنا في كبدٍ كما قال كتابُ اللهِ الشريفُ، مجانينُ مَن ينتحرون، أليس كذلك؟ رغم ذلك، يُنافي هذا مجالَ دراستي، فأنا أكثرُ شخصٍ يعلمُ ما هو الاكتئابُ وكم هو شرِهٌ؛ يمتصُّ المرءَ حتى يتركَه خاويًا، ولكن متى يُمكن التنبؤُ بأنَّ الشخصَ الذي أمامنا هذه آخرُ دقائقَ له معنا؟ هذه آخرُ محاولاتِه مع الحياة؟ متى نعلمُ أنَّ هذه ليست أفضلَ أيامِه، وأنَّ اليأسَ الخبيثَ قد تلبَّسَه؟ متى قد تأكلُه أشباحُ أفكارِه؟ متى نعلمُ أنَّ ضوءَ الحياةِ في عينَيه خفَت؟

تُرعبني فكرةُ اللحظاتِ الأخيرةِ، الوداعِ الأخيرِ، والحضنِ الأخيرِ، وآخرِ صلاةِ عشاءٍ تجمعُنا، وبدلًا من أن نصليَ معًا، نُصلِّي عليه، نُصلِّي أن يغفرَ له الله، وأن يتقبَّلَه، حاولتُ أن أُدرِك أبعادَ الموضوع، وأنَّ المنتحِرَ لا يُعاني من ضيقِ السكنِ، ولكن بالتأكيد يُعاني من ضيقٍ في صدرِه، يا صديقي، عندما يحلُّ شبحُ الاكتئابِ عليكَ، يأخذُ سعادتَك، محاولاتِك، تذوُّقَك للأيام، فكلُّ شيءٍ يبدو باهتًا من نظرِهم، ألا يُعتبرُ الأمرُ غريبًا؟ لا أحدَ يُفكِّرُ فيما يُفكِّرُ به المنتحِرُ.

وبَّخَتني أمي لإسرافي في القهوة، لأنها تعلم خطورة الكافيين على القلب وأعضاء الجسد، ولكن هل تعلم خطورتَكَ أنت على قلبي؟ رُبما ستوبخني إن علمت، فمثلما أُدخِلُ الكافيينَ جسدي بإرادتي البحتة، أدخَلتُكَ أنت كذلك، سمحتُ لكَ بالتغلغل فيَّ كالمرض الخبيث، فكيف أعود لأبكي لها عمَّا أنت فاعلُه؟ أنت تُصيبني باليأس، بعدم التقبُّل، بالأفكار السوداوية، رغم وردية أحلامي، أعطيتُكَ أجزاءً مني، وبقيتُ أنا كقطعةِ بازل غير مُكتملة، ظننتُ أنك هكذا ستُحبني، ستتقبلني، وتُربِّتُ على قلبي الخائف، ولكنك كُنتَ أكثر قسوةً مما يحتمله قلبٌ خائف، أنا الآن غاضبةٌ من نفسي، لأنني لا أعلم لماذا أحنُّ إليكَ رغم إدراكِ التام أننا لن نعود، غاضبةٌ لأنني لم أستطع أن أكون ما تُريده، غاضبةٌ لأنني صدَّقتُ وعودَكَ الوردية؛ بأنك ستُخفي نُدُوبي ولن تُحدِثَ نُدوبًا جديدةً، غاضبةٌ لأنك أحدثتَ بالفعل ندوبًا جديدةً، وفُتِحتْ نُدُوبي القديمة بفضلك، أنا حمقاءُ، لأنه من المفترض أن يُصَبَّ غضبي عليكَ أنتَ، لا على يدي المسكينة، ولا قلبي الذي أجعله يتجرَّع الكثير من النيكوتين بلا سببٍ واضح، غاضبةٌ لأنني لا أستطيع التعبير عن هذا الشعور إلا بتلك الحروف الغبية التي تجعلهم ينظرون لي نظرةً مُريبة، تجعلهم ينتقدونني بحجة أنهم مُعجبون، سئمتُ ذلك.

التقيتُ بجدتي بعدَ مدةٍ طويلةٍ لم أرَها، ظلَّت تسألني عن أحوالي، وهل خُطِبتُ لأحدٍ، وكيف تسيرُ دراستي، وكلُّ ردودي لها: بخيرٍ يا جدتي، لا يا جدتي، لم يأتِ فارسُ أحلامي لخُطبتي بعد، ودراستي على ما يُرام" حدَّثتني عن سُكّانِ بَلدِنا الذين تُحبُّهم، والذين قطعوا الوِصال معها، بيني وبينكَ، هُم بين يدي الله الآن، ولكنها لا تتذكر ذلك، تُمسكُ يدي، وتخترقُ نظراتها روحي، وتُخبرني أنها كانت أجملَ مني عندما كانت في سنِّي، شعرُها كان طويلًا وكثيفًا، وعيناها زرقاء داكنة، وكان الشبابُ يتهافتون عليها، لو قرأ أبي ذلك النصَّ لقتلني، أكملِي يا جدتي، لا تَكترثي، يا جدتي، لا، لا تُعيدي تلك الأسئلة من جديد، أُقسمُ أني أجبتُ عليهم، يا جدتي! لم نظلَّ أصدقاءَ أنا ومن تعرفينها، لا تسألي عنها مُجددًا، صدقيني لا أعلمُ عنها شيئًا سوى اسمِها، أكملي رجاءً، عنكِ أنتِ أترُكيني أنا وحياتي البائسة، أكملتْ جدتي عن تربيتها لأبي وعمِّي وكيف كانت سعيدةً أن يأتي لها صُبيان وسط العديد من البنات، لا أستطيع التذمُّرَ ولا إخراجَ روحِ النسوية بداخلي، هذه جدتي، شهيق، زفير...حسنًا، أكملي! حدَّثتني عن طباعِ كلٍّ منهما، وأن أبي أحبَّ أن يكون ذلك القياديَّ المغوار الذي يلجأ إليه جميعُ من حوله، والجميعُ يهابُه ويَحترمُه، وعمِّي كان حنونًا كأبيه، ومن شابَهَ أباه فما ظَلَم؛ عندما يغضبُ يُصبحُ وحشًا كاسرًا، لماذا تُجعلينني أخافُه يا جدتي أكملي، أخبرتني أنها تُحبُّ أبناءَها كثيرًا،

ولكنها لا تتذكر من تزوجوا، وأين سكنوا، وكيف حالهم الآن؟ نُطمئنُها، لتُعيد الأسئلة من جديد وكأننا نملأُ بئرًا مثقوبًا، حديثُنا لا يُفلح، أعتذرُ لكِ يا جدتي نيابةً عن العالم، عن الأقدار، عن وجعِ القلوب، وظلامِ الدروب، عن قِطارِ الزمنِ الذي يفوتُهم، والقِطارِ الآخرِ الذي يدهسهم، والقطارِ الذي أضاع حقائبَ عُمرِهم، لماذا أبكي! يا جدتي، أكملي يا جدتي، لا تترُكيني مع أفكاري هكذا، دعتْ لي ألَّا يمسَّني العمرُ وتظلَّ عيناي تلمع هكذا، تظلُّ بشرتي بيضاءَ مشدودةً، وقلبي مُزهرًا، وعقلي سليمًا غيرَ مثقوب، آهٍ يا جدتي، أخبرتني إنني حفيدةٌ جيدةٌ، وتتمنى أن يُطيل اللهُ عمري لأبي وأمي، لماذا هذه الدعوة يا جدتي؟ لا أُحبُّها، اللهُ يُطيلُ في عُمرِكِ أنتِ، أما أنا؟ شكرًا جزيلًا، لا أريد، ضحكتْ جدتي وأخبرتني: "أباكِ أحزنكِ في شيء؟ إن فعل، أُقسم لأُقرصَ أُذنه وأوبِّخه!" تقرصين أُذنه وتوبخينه؟ أبي الذي يكمل ستون عامًا؟ مضحكةٌ أنتِ يا جدتي، أكملي، أكملي، رائحةُ الجيل القديم تبدو جميلة، أخبرتني أنني أُشبهُ أبي لا أمي، وأنني كنتُ شقيةً في صغري وأتسببُ في المتاعب، ضحكتُ، وإلى الآن يا جدتي أُقسمُ لكِ، أتعثرُ في مشاكل من حيثُ لا أحتسب، المشاكلُ تُحبني، ولكن لا ألومُها؛ من لا يُحبني؟ ما هذه النرجسية! يا جدتي أكملي، أخبريني، هل كنتِ تُحبين جدي؟ سرحتْ وهي تتذكرُه، وانهمرت بالكلام الطيب المعسول على جدي، محظوظٌ جدي ليتذكره أحدٌ بكلِّ ذلك

الحبِّ بعد وفاته بكثيرٍ من الأعوام، وتتذكره بنصف عقلٍ، فماذا لو كانت مُدركةً مثلنا؟ كانت ستكتب لكَ يا جدي الكثيرَ من الرسائل، كانت ستُخبرني أن أُعلِّمَها صياغةَ الحروف لتُهديها لك، أُقسم كانت ستفوقني، جميلةٌ جدتي.

منذ أن أحببتُكَ وأنا أُفكِّرُ في تلك اللحظةِ التي ستتركني فيها، وكيف ستنقضُ وعودكَ، تفنَّنتُ في صُنع سيناريوهاتٍ إلَّا الذي حدثَ، تخيَّلتُ كيف سيمرُّ ذلك اليوم، وهل سأكونُ قادرةً على التنفُّسِ من كثرةِ البُكاءِ؟ توقَّعتُ أن أُكسِّرَ زجاجَ غرفتي من كثرةِ غيظي، توقَّعتُ أن أُمزِّقَ صوركَ التي على حائطي، توقَّعتُ أن يتوقَّفَ قلبي من كثرةِ القهوةِ التي سأحتسيها، ولكنَّ المُذهلَ يا صديقي أنني لم أُحرِّك ساكنًا، لم أذرف دمعةً واحدةً، فقط تجمَّدتُ، أشعرُ بالبردِ يحتلُّني رغمَ أنَّ درجةَ حرارتي عاليةٌ، أشعرُ بعدمِ قدرتي على الكتابةِ حتى، تهربُ مني حروفي؛ خِشيةً من أن تكتبَ عن رَحيلكَ، حدَّثتني صديقتي عن موتِ أُخت الأديبِ الذي نُحبُّ أن نقرأ له، وكيف كان يقولُ إنَّه لا يعترفُ بموتِها، لأنَّه لو اعترفَ؛ لَجُنَّ، ولَن يجد ما يجعله يستيقظُ كلَّ صباحٍ، بدونِ وعيٍ وجدتُ عقلي يُفعِّلُ دفاعيَّةَ الإنكارِ؛ لأنَّني لن أستطيعَ أن أُواجهَ عالمي الخالي منك، كيفَ سأمنعُ ثغري من ذكرِ اسمكَ عندما تُذكَرُ خُططُنا المُستقبليَّة؟ كيفَ سأمنعُ صديقي الذي كنتَ تكرهه من الحديثِ عنكَ؟ كيفَ لن أبحثَ عنكَ عندما تخطو قدمي بلدكَ؟ كيفَ سأمنعُ عيني من أن تراكَ في جميعِ الناسِ حولي؟ كيفَ أُبعدُ رائحتكَ، صورتكَ، صوتكَ من أن يتخللوا رُغمًا عني لذاكرتي؟ كيفَ سأمنعُ أمي من الحديثِ عنكَ وعن جمالِ غمازاتكَ وعينيكَ؟من وقتها وأنا لا أعيشُ على الخبزِ والماء، إنما أعيشُ على آلياتِ عقلي الدفاعيَّة؛

القليلُ من التبرير، على القليلُ من الكبتِ، والكثيرُ الكثيرُ من الإنكار، أتعلمُ ما هو الإنكار؟ الإنكارُ هو المزيدُ من الأكاذيبِ التي أُغذِّي بها عقلي، الإنكارُ هو الضحكاتُ العاليةُ للتغطيةِ على صوتِ أفكاري، هو سنواتُ عمري التي أُصرُّ أنَّها لم تضِعْ هباءً، وإنما لكلِّ شيءٍ يحدثُ سببٌ، الإنكارُ هو الوعودُ المنكوثةُ، والعهودُ المفسوخةُ، والأحلامُ المُحطَّمةُ، وأشلاءُ قلبكَ المُمزَّقة، الإنكارُ هو عدمُ حذفي لصورنا، مُتمنيةً أن نعود، الإنكارُ هو رفضي للاستيقاظِ كي لا أرى أنَّني في كابوسٍ مُرعبٍ، الإنكارُ هو خوفي من مواجهةِ نفسي، كي لا اصطدمَ بها وألومَها على كلِّ تصرُّفٍ غبيٍّ فعلتُه، الإنكارُ هو هروبي من نفسي ومن الأيامِ، الإنكارُ هو الكثيرُ من الأسئلةِ التي تنهشُ عقلي بلا رحمةٍ، الإنكارُ هو أحيانًا رفضُ النظرِ في الساعةِ أو تاريخِ اليومِ؛ رُعبًا من إدراكِ أنَّ الأيامَ تتجهُ للأمامِ بدونِكَ، الإنكارُ هو تمسُّكِ بذكرياتِنا السعيدةِ، مع حذفِ الجزءِ الذي تركتني فيه، عقلي يؤلمني، يا عزيزي، كلُّ شيءٍ هنا يتهشَّمُ فوقَ قلبي.

سألني صديقي: ما الذي تُودِّين أن تَريهِ في حياتنا معًا عندما نتزوج؟
مرَّت بعض الدقائق وأنا أنظر إلى تلك الرسالة وأُفكِّر، ماذا أريد؟ رُبما بيتٌ هادئٌ يخلو من الضجيج، لا يتأرَّق أفراده من بعضهم، ويُلقون اللوم على القهوة، بيتٌ ممتلئٌ بالفراشات، والحبِّ، والتفاهم، لا أريد أن تسكن جدرانَهُ الخوفُ والرهبة، بيتٌ لا تغربُ شمسُه وتُعلن عن بدايةِ ليلٍ كئيبٍ يجثو على قلبك، أريد أن أرى معنى السعادة وهي تَحلُّ على وجوه الأفراد الساكنين في البيت، أن يلهو الأطفالُ ويركضوا، ولا ترتجفَ أيديهم إثرَ كسرهم لكوب ماء، أريد أن أرى مصدرًا آخرَ للدفء غير أشعةِ الشمس، أريد أن أعلم كيف تكون لحظةُ الطمأنينة وسط العديد من ساعات القلق، أريد أن أرى كيف يُمكن أن تتقبَّل جوانبَك المظلمة، صفاتِك السيئة، وعدمَ براعتِك المُطلقة، أريد أن أرى الحبَّ غير المشروط؛ الحُبَّ حينما يحتلُّ الحِبرُ أسفلَ عينَيَّ، وعندما يذبُل قلبي، وتَتجعَّد ملامحي، أريد أن أرى اكتفاءَنا ببعضنا، أريد أن أرى كيف سنصمُد ونحن نُحارب العمرَ، والمللَ، والأزمات، أريد أن أرى رغبتَك بي مُشتعلةً لا تنطفئ أبدًا، وتتجدَّد مع كُل يومٍ، أريد أن أراك أنتَ من تفتح البابَ وتدخل المنزل بعد يوم عملٍ شاق، أريد أن أرى أيَّ شيء إلا اللونَ الرمادي، انطفاءَ الرغبة، الصوتَ المرتفع، وضجيجَ العقول، والأهمُّ من ذلك، أتمنى أن أرى كيف ستكون الحياةُ معك،

معكَ أنت بالتحديد، كيف ستُطمئِن قلبي وتجعلني أقولُ بإرادتي البحتة: قبلتُ الزواجَ منك.

أيُّهما أقسى يا سراج؟ أن يتركَكَ شخصٌ تُحبُّهُ بدونِ سببٍ واضحٍ، أم بسببٍ واضحٍ؟ لا تتسرَّع، فكِّر قليلًا، ماذا تقول؟ تُخبرنـي أَنَّهُ من الأَفضلِ أن يتركَكَ بسببٍ واضحٍ، مُضحكٌ أنتَ يا سراج! تقولُ ذلكَ لأنَّكَ تعتقدُ أَنَّ معرفتَكَ بما حدثَ ستُساعدكَ على تجنُّبِهِ في علاقاتكَ القادمة، هذا لو كُنتَ تَمتَلِكُ الجُرأةَ مِنَ الأَسَاسِ لِتَبدَأ مِن جدِيد، أنتَ سطحيٌّ حقًّا يا سراج، ألم تُفكِّر في ما وراءَ ذلك؟ لم تُفكِّر في محاولاتِكَ لإثباتِ عكسِ ما قالَهُ لكَ ذلكَ الشخصُ قبل أن يرحلَ؟ من أسبابٍ واتهاماتٍ، لم تُفكِّر في الأشباحِ التي ستَحتلُّ عقلَكَ وتُهاجمكَ في الليل، تُخبرُكَ أنَّكَ غيرُ كُفءٍ، وكلُّ شيءٍ تلمسُهُ يداكَ يَفسُدُ، وكُلُّ من تُحبُّهم يرحلون، وأنَّهُ لا فائدةَ، وأنكَ تفشلُ كُلَّما حاولتَ، ألم تُفكِّر في لومِكَ لنفسِكَ، حديثِكَ لها، وصِداماتِكَ معها؟ "لو عادَ الزمنُ، أُقسِمُ أنَّني لن أفعَلَ ذلك" تُوافِقني الرأيَ يا سراج؟

ومن خبرتي أُخبرُكَ أن تُترَكَ بلا سببٍ واضحٍ، ذلك شيءٌ قاسٍ جدًّا أيضًا، ستظلُّ طيلةَ عُمرِكَ تسألُ نفسَكَ: "ماذا فعلتُ كي أستحقَّ ذلك؟ وكيفَ مَن أحببتُهُ يهدمُ كلَّ ما بينَنا هكذا ويُقرِّرُ الرحيلَ؟" يأخذُ بعضَهُ، ويُغلِقُ البابَ، ويتركُ لي الذكرياتِ، ووجعَ القلوبِ، وظلامَ الدروبِ، وثقتي المهزوزةَ لكلِّ ما هو قادم

الأمرانِ قاسيانِ بما يكفي ليجعلا شخصًا سيئًا مثلي لا يُجيدُ التعبيرَ عن مشاعره، لا يستطيعُ البوحَ ولا الشكوى، يكتبُ ويكتبُ، يبصمُ على الورقِ بخيباتِهِ، يكتبُ بكلِّ ما فيهِ من قوةٍ كي يَطبعَ ذلكَ السوادُ القابعُ بداخله على هيئةِ حبرٍ على ورقٍ، الأَمرانِ يا سراج يؤلمانِ، يُجعلانِكَ تتخبَّطُ بينَ ألفِ سؤالٍ بلا إجابةٍ، ويجعلا الأرقَ ضيفًا للياليكَ؛ يحرِمُكَ من النومِ الذي ينعمُ به المليارات الآن، الأَمرانِ يأكلانِ الروحَ يا سراج، الأَمرانِ ينهشانِ العقل.

أين تختفين يا أستير؟

أُعدُّ القهوة، وأفكر فيك، ومن كثرة شرودي كادت القهوة أن تفور وتسقط على بوتاجاز أُمي، أُقسم وقتها أنها لن تُسَمِّي عليَّ وعليك، لن تُخبرني: "دلق القهوة خير يا عزيزتي، فداكِ" لا بأس، ما زالت القهوة سليمة، تصلح لأن ألتقط لها الصور وأنشرها على حسابي على إنستجرام، وأكتب عليها: "القهوة البُنِّيَّة لصاحب العيون البُنِّيَّة، والظل الطويل، والذقن الخفيفة التي لم تكن من تفضيلاتي يومًا، إلا عندما أحببته" فيروز تسترق السمع لنا من الخلفية، أنا أحب فيروز كثيرًا يا عزيزي، صوتها دافئ، يليق بأجواء الشتاء الماطرة، كي يُحدث توازنًا، دعني أُكمل ما بدأت هذا النص لأجله، بما أنك تُحبني كما تدَّعي، هل تعلم أنني لا أحب إلا القهوة السمراء السادة المُرَّة؟ لأني أنا جميلة، كي يُحدث توازنًا أيضًا، لا تنظر لي هكذا، أنا أمزح

هل تعلم أنني أتأمل قهوتي بحُب؟ رغم انتقاد أمي وأصدقائي لي لأنني أُسرف في شُربها، هُم لا يعلمون أن في حضرة القهوة يتلصص الحب على شرايين القلب والذاكرة، وهذا ما يُصيبني بالحنين؛ فأجول بين كل رشفةٍ أبحثُ عن عينيك وأُفتش عن ذكرى قديمة قد تبعث الحياة في قلبي الراكد، أتلهَّف لأراك، وأرى كيف سترتعش يدك بين يدي، أم أنك لن تُصافحني تلك المرة، لأنه في الإسلام لا يجوز مصافحة

النساء؟ حسنًا لا بأس، على الأقل سأراك تتحاشى النظر إليَّ،
وأستغل ذلك أنا، وأحتفظ ببعض اللقطات منكَ، لأُخزِّنها في
ذاكرتي كمخزونٍ إضافيٍّ يُسعفني في تلك الليالي الخالية منك
آه يا عزيزي، تلك الفترة التي أحببتُكَ فيها كانت ذخيرتي
للأمام، تُبعد أجواء النَّدب والكآبة

عزيزي، يا صاحب الظل الطويل، لماذا يريدون أن نفترق؟
ما المُشين في حُبنا؟ هُم لا يعلمون غير الحب الراضخ
للمجتمع والأهل، لم يُوهَبوا حُبًّا مُتمردًا، حبًّا منسوجًا بحبال
الوعيد والتهديد، حُبًّا يُصارع ثيران التقاليد لأجل أبدية
الوجود بجانب بعضنا

لا أعلم لماذا حُبنا في عرفهم جريمة، ألم يحثّنا الله على
الحب؟ نحن نعتنق دين حب وسلام، صحيح؟ لا تكترث، لا
أحد يستطيع أن يحكم على قلبه، ولا أحد يختار مَن يُحب،
وأنا أحببتُكَ، لذلك أكتُب لكَ الآن، وأخبرك أنني اشتقتُ لكَ،
هل أطلتُ عليك؟

عزيزي حيّان، هل تعلم أنّني لم أكن أرغب في الحياةِ يومًا؟ كان قلبي في خصومةٍ معها، كان العالم ضيّقًا ولا يسع عقلي، والبشر مزعجون، ومأساتي الكُبرى أنّني أفكّر وأفكّر حتى تبتلعني أفكاري، تعلم أنّني حاولت تقبّل الحياة، لكنّ الحياة لم تتقبّلني، ولكنّها أيضًا لم تسمح لي بمغادرتها، لذلك أنت هنا يا حيّان، وددتُ أن تُخلق أنت كزهرةٍ من رحمِ المعاناة، تُخلق كرغبةٍ للاستمرار، لذلك أسميتُك حيّان، لترغب أنت في العيش بدلاً مني، لتُحبّبني في الحياة، لأراها في عينيك بدلًا من عينيّ الذابلتين، وهبتكَ صيغة المبالغة من "حيّ" كي تحيا أنت، وتُعلّمني كيف أحيا من أجلك، كي تُقلّص دمعي وحسرتي على عمري الضائع، وتكون أنت فرصتي الأُخرى، وأتوقّف عن ترك نفسي أنجرف في مجرى الكآبة والبؤس، اللذين أصبحا يُلازماني مُؤخرًا، تعلم لماذا أسميتُكَ حيّان؟ كي أنظر إلى عينيك فتتبدّد شكوكِ وأشعر أنّني حيّة، حيةٌ أشعر وأُحِبّ، أنا قادرةٌ على الحُبّ وعلى صُنع معجزةٍ مثلك يا حيّان، صحيح؟ أنتَ الأحلام التي زرعتها أنا وأباك، الرسائل السرّية وأغاني أم كلثوم، كيف تعارفنا، وكيف كنا نحبّ بعضنا في صمت، كيف كنا نختلف وكيف كنا نتفق، كيف كانت علاقتنا مُعقدةً ميتة، وحيّيتها أنت، لذلك يا عزيزي، أتمنى أن تنال نصيبك من اسمك وتحيا، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تحيا وتشعر ولا تتجرّع الحزن الثقيل مع القهوة المُرّة، لا تُداعبك الحياة

بخيباتها، أتمنى أن ترفق بك، وألّا تتمنى أن تُغادرها وتكره اسمك لأنّه يُذكّرك بها.

إن أعادوا لنا الأماكنَ، فمَن يُعيدُ لنا الرفاقَ؟

مشكلتي ليست مع الأماكنِ يا صديقي، الأماكنُ أكثرُ لطفًا من أن ترحلَ أو تمحوَ ذكرياتِنا، الأماكنُ الآن هي مَن تسألني: أين هُم؟ لماذا أنتِ هنا بمفردِكِ؟ لا أدري حقًا، لا أستطيع الإمساكَ بتلك اللحظةِ التي انفرطَ فيها كلُّ شيءٍ وتهدّم، هل مِن العدلِ أن يُقرِّرَ أحدُهم الرحيلَ ويتركَ الآخرَ هائمًا مُشرّدًا؟ لا تسَعُه أماكنُ جمعتهم، ولا تقبَلُ به منفردًا، وإن أتى لها بشخصٍ آخرَ أخبرتهُ بتهجُّمٍ: "هذا ليس مَن تُحضِرُهُ دومًا، هذا ليس مَن تنظرُ إليهِ وعيناكَ تلمعانِ، هناكَ شيءٌ خاطئٌ، هل أنتَ أحمقٌ! " وتظلُّ الذكرياتُ تصرخُ في وجهِكَ، ظننتَ أنك تعافيتَ؟ يا أحمق! مَن يُصيبُه الحنينُ يُحرِقُه، وأنتَ الحنينُ يُحبُّ أن يُداعِبَكَ، أخبرتُكَ لا تسِر من ذلك الشارعِ مرةً أخرى، وذلك النوعِ من المثلَّجاتِ لا تُحضِرْه، ولا تنظُر لتلك الورودِ الصفراءِ، لا تفعل ذلك بعقلِكَ المسكين، هنا كان مسقطُ قلبِهِ، وهنا أنتَ فقدتَ عقلَكَ يا سيدي السائقُ، رجاءً أغلِقِ الراديو، لماذا تُهاجِمونني جميعُكم اليوم؟ لماذا تصرخون في وجهي: "فاشلٌ، فاشلٌ" أُقسِمُ لكم إنني حاولتُ التمسُّكَ بهم بكلِّ ما أملك، تمسَّكتُ بهم حتى نزفت يدي، حتى نفذت آخرُ ذرةِ حبٍّ بداخلي، وحاولتُ، وبعد ذلك ماذا؟ هم مَن رحلوا، هل تعلمُ إنني ما زِلتُ أُحبُّهم؟ لا تُصدِّقُني؟ أنتَ تعلَمُني يا عزيزي، حروفي

ثمينةٌ لا تُهدى لمن لا يستحقُّها، لذلك أكتُبُ عنهم، كي لا أنساهُم، حتى إن هم نسوني ولم يذكروني في المجالس، فأنا أكثرُ مَن يعلمُ قُدسيَّةَ الذكريات، لذلك أكتُبُ وأكتُبُ، أبعثرُ الذكرياتِ والخيباتِ من عقلِي، كي لا تجثو على قلبِي في الليل، كي لا تُداهمني على حينِ غفلةٍ وأبكي لأنَّ قهوتي بردت، ربما رحيلُهم ليس جريمةً أستطيعُ مُقاضاتَهم بها، ولكنَّ ما فعلوه بقلبي يستحقُّ المُقاضاة، أنا لا أستحقُّ أنْ أنظرَ لأشيائي وأراها مُعاتِبةً: "أين أصحابُ تلك الذكريات؟" لا أعلمُ، يا عزيزتي، أين شرَدوا، ومع مَن هم الآن؟ وهل هم أفضلُ مني؟ هل تُخبرُهم بنفسِ كلامِكَ المعسولِ لي؟ أنني حبُّكَ الأولُ، وأنك لم تنفتح لأحدٍ كما فعلتَ معي، وأنني مُريحةٌ لكَ وعيناَيَ جميلةٌ، وكلُّ ذلك الكلامِ المُنمَّق؟
أكنتُ أستحقُّ منك أن تجعلَني أتساءل: أكان ما بيننا حقيقيًّا أم زيفًا؟ يا عزيزي، يا عزيزي، سئمتُ منك، وسئمتُ من تمسُّكِي بك، وسئمتُ من الكتابةِ مرارًا وتكرارًا عن نفسِ الأحداث، سئمتُ من الكتابةِ عن خيباتي، التي يشاءُ القدرُ أن أُعيدَها بنفسِ الدقةِ في الخطأ كُلَّما مُنِحتُ فرصةً جديدة.

هل تعلمين يا ميلينا؟ أنّني لو كنتُ أعلم متى سأُقابل الموت، لظللتُ أكتب وأكتب، ستكون نصوصًا صريحةً وقتها، لن أتخفّى في التوريات، ولن أطمُس الأسماء، سأحكي بكل صدق، سأحكي عن الظلم الذي يحوم حولنا، عن البلاد التعيسة والطفولة المُشردة، سأحكي عن الحُبّ الذي لا نعرف عنه إلّا صعوبته، وكيف يقتلوه وهو طفل في رحم أُمه، سأكتب عن الحياة وإنّها لم تُحبّني قَطّ، أنّها كانت دومًا تتعمد أن تأخذ ما أحببته، إن كان هناك عالِمٌ سيدرس نظريةً عن العلاقة العكسية بين الرغبة والفقد، سأكون أنا أول من تُمارس عليهم النظرية، سأكتب عن وحدتي ومرضي، عن حقيقتي المُتَوارِيَة خلف القناع، عن غضبي الذي يحوّلني لوحشٍ كاسر لا أعلمه، عن ذلك الصوت الذي في رأسي، الذي يتحكم في كامل جسدي، الذي يلتهمني ببطء، سأكتب لصديقي وأخبره أن يُسامحني لكذبي عليه بشأن مرضي، سأكتب عن القهوة، سأتغزل في القهوة، رغم أنّها تضرّني بشدة، أعترف، ولكنها تُسّكِن تلك الأفكار التي لا ترضيني ولن ترضي الله، سأكتب عن محاولاتي الناجحة والفاشلة، سأكتب لجميع من أُحبّهم، سأعتذر عن عدم تواجدي في لحظاتهم المهمة، سأُعانقهم بشدة، سأكتب عن أيّ شيء إلّا اللحظات الأخيرة، لن أكتب حرفًا عنها، لحظات الوداع عقلي لا يفهمها، يقف عندها، وبه علامة استفهام، لذلك إن

كنتُ أعلمُ موعد موتي، لن أودّعهم بطريقة مباشرة، لن أترك لهم رسالة مثل فان جوخ، وأجعلهم يتمنون لو أنّهم ودّعوني، وأجعل الشُعراء والكُتّاب يتغنّون باسمي في قصائدهم التعيسة، ويصلّون لأجلي في طريقهم للمقابر، ما هذا يا رِفاق؟ لا أريد شكرًا لكم، أنا كتبت ما يكفي عن الوداع، والخيبات، والموت، وتلك الأشياء، أيمكنكم أنتم أن تكتبوا عن الجمال والحياة والورود والحب؟

كتبتُ لكَ رسائلَ كثيرةً، لو شاءَ القدرُ فحتمًا سأُعطيك إيّاهم، سنقرأهم سويًا يومًا ما، وسأُبعدُ وجهي عنكَ، ستُخبرني أنّني لستُ بتلك الجُرأةِ التي أكتُبُ بِها في الحقيقة، معكَ حقٌّ، ولكن معكَ أنا لستُ مُزيّفة، معكَ أبكي وأضحك، أتظاهرُ بالقوّةِ تارةً وأسقطُ في هشاشتي تارةً أُخرى، أُخبرُك أنّني خائفةٌ من نفسي، وأنا أمامَهم وحشٌ كاسرٌ لا أشعرُ البتّة، رغمَ أنّني لم أكُن يومًا صامدةً، كنتُ بقايا وجعٍ، بقايا فُرصٍ، بقايا أمنياتٍ، كنتُ لا أستحقُّ أن أُمنحَ الأشياءَ الكاملة، كانوا يُلقونَ لي الفُتاتَ كي أصمُت، عشتُ طيلةَ عمري خائفةً أن يُعرّى ضعفي، أن أُسلبَ قدرتي على الكتابة وأُخبرَك بصدقٍ عمّا يحدثُ حولي، خائفةً أن نفترقَ دون أن تعرفَ مدى امتناني وحُبّي لكَ، دون أن تعرفَ عن شعورِ الطمأنينةِ التي تزرعُها فيَّ، أخشى أن نفترقَ قبل أن يجمعَنا منزلٌ واحدٌ، أخشى ألّا أحصلَ على الحياةِ التي حُرمتُ منها، أن أموتَ قبل أن ننجبَ طفلًا يُشبهُكَ، مُثيرًا للشغبِ ومُمتلئًا بالأملِ، دون أن أعتنقَ دينَ الحُرية، ولكنّني حاولتُ يا حبيبي، صدّقني حاولتُ أن أكونَ تلك الفتاةَ الجميلةَ الخاليةَ من الندوب، التي لا تُدخّنُ وتُزعجُها الألفاظُ البذيئة، تلك الفتاةَ ذاتَ الشعرِ الهادئِ، غيرِ المُتمرّدِ، ذاتَ القلبِ الحنونِ الذي يُزعجُكَ حنانُهُ في أوقاتٍ عديدة، حاولتُ أن أصرخَ كما علّمتَني، ألّا أصمتَ، أن آخُذَ حقّي من أفواهِهم، ولكنّني أرتعدُ كلّما أدرتُ ظهري عنهم، العالمُ يبدو مُخيفًا، والناسُ مُزعجون، وغيابُكَ يجعلُ الأمورَ

أسوأ، أتمنّى أن تعودَ في أقربِ وقتٍ لتُخبرني أنّني مُزعجةٌ، ولا أكفُّ عن طرحِ التساؤلات، وتَتملّكني الغيرةُ طيلةَ الوقت، أستعود؟

عندما تحدثتُ مع صديقٍ لي، نظر إليَّ متسائلًا: ألهذا الحدِّ تفتقدينه؟

أفتقده! هذا سؤالٌ في غاية التعقيد، إنني أفتقد شيئًا لا أستطيع التحدث عنه، ولا أستطيع وصف الهشاشة التي أصابتني بعد غيابه، هو من كان يُشعرني بأنني على قيد الحياة، وكان يحميني منها في أوقاتٍ أخرى، كان يُخبرني أنني الأولى والأخيرة، وأنني متوهجة وألمع، وأن كل ما أُسيء به إلى نفسي ما هو إلا تُرهاتٌ ظالمة لا تليق بي، أتَعلم أين المشكلة يا عزيزي؟ إنه - وبكل سهولة - تركني في المنتصف المُميت، أنا التي سرتُ لأجله كلَّ ذلك الطريقَ الشائك، ولا أجد ما يستدعي اللوم؛ فهو لم يُكبلني ويُرغمني على السير، أنا من طاوعته بإرادتي البحتة، فهذه ليست مشكلته، القانون لا يحمي المغفلين، صحيح؟

عزيزي فُلان، السَّلامُ عليكَ أينما كُنت، ثَمَّةَ أسئلةٌ تدورُ في خاطري تُصيبُني بالأرقِ وتُحرِقُ عقلي، لذا دعني أسألك، لن أُطيلَ عليك

أُريدُ أن أشتكيَ مِنكَ إليكَ يا عزيزي، يقولونَ إنَّكَ رحلت، هل رحلتَ حقًّا؟ لا أتقبَّلُ تلك الفكرة، أنا لستُ خياليَّةً، ولستُ مُتوهِّمَةً، هذه المرَّةَ أنا في كاملِ قواي العقليَّة، لا تضحك! مُقدِّرةٌ أنَّها المرَّةُ الأولى التي تراني فيها ناضجةً، ولكنَّ هذا ذنبُكَ أنتَ، أنتَ مَن جعلتني أُصعق، ويشيبُ شَعري إثرَ ذلك وأنا ما زلتُ في العشرينات، أنتَ تُفتِّشُ عن نُدُوبي القديمةِ لا لِتُعالِجَها أو لِتَرسُمَ حولَها النُّجومَ كما أتَغَنَّى في نصوصي، بل لِتُذَكِّرَني بذلك الألمِ مرَّةً أُخرى، تفنَّنْتَ حقًّا في تذكيري، ولكنَّني لم أنسَ مِنَ الأساس

أنتَ وَغدٌ حقًّا يا عزيزي، كيف ترحلُ وتتركني؟ عُدْ، خُذْ أشياءَكَ إذنْ؛ نَظَّارَتَكَ، وتلك القِلادَةَ التي أعطيتَني إيَّاها، وصُوَرَ فريقي المُفَضَّلِ، الذي أصبحتُ أمقُتُهُم لأنَّهم يُذَكِّرُونَني بكَ، ولا تنسَ أن تأخذَ صُوَرَكَ المُعَلَّقَةَ على الحائط، وتلك الرَّسْمَةَ التي رَسَمْتَها لي، وأخبرتَني أنَّني أُشْبِهُ الشَّمْسَ، لذلك تَجِدُ إلهامَكَ دائمًا كلَّما اشتَقْتَ لي، كيف حالُ الشَّمسِ وأنا لستُ هنا؟ هل ما زالت تُذَكِّرُكَ بي؟ هل يَسيرُ يومُكَ على ما يُرام؟ يُؤسِفُني القَوْلُ، أنا لا، الشَّمسُ تشرقُ نعم، والظَّلامُ يَحِلُّ كعادَتِهِ قاسٍ وعنيف، والأرضُ تَدُور، وكلُّ شيءٍ يَسيرُ عَدَا حياتي أنا، قد يَصِفُني أحدُهم بالمبالغة،

وأنَّني "بَنات آخر زَمَن" كما يقولون، أُقسِمُ أنَّـهم لا يَفهَمُونَ معنى أن تَخسَرَ كلَّ شيءٍ، لِتَعودَ إلى نُقطَةِ الصِّفرِ مرَّةً أُخرى اللَّعنَةُ! أنا لم أشعُر بالعَجزِ في حياتي قَطُّ إلَّا عندما أحببتُكَ، تُداهمُني التَّجاعيدُ، والأمراضُ، والمَلَلُ، والذِّكرَياتُ، كلُّ شيءٍ يُذَكِّرُني بكَ، مُلئ قلبي بالشَّيخُوخَةِ قبلَ الأوان، نحنُ لا نَكبَرُ بالزَّمَن، نحنُ نَشِيخُ بالفِراق، وكان حُبِّي يَحمِينِي من كلِّ خُبثٍ، يَحمِينِي من أفكاري الشَّيطانيَّة، كنتُ أحمِلُ مَلامِحَ الجَدَّةِ، وقَلبَ ورُوحَ الحَفِيدَةِ، كنتُ مُزْدَهِرَةً بريئَةً لأنَّكَ كنتَ تَراني هكذا، كنتَ جَمِيلَتَكَ حتَّى آمَنتُ أنَّني أجمَلُ نِساءِ العالَم، والآنَ أُصِيبَتْ مَلامِحي بالتَّعاسَةِ والعَجزِ، حتَّى ابتِسامَتي تَبَدَّدَت، لا أحدَ يُرافِقُني الطُّرُقَ، لا أحدَ يَستَمِعُ معي إلى "مَشروع ليلى" لا أحدَ يَحتَسِي معي القَهوَةَ، أو يُوَبِّخُني لإسرافي بها، لا أحدَ يُشارِكُني الحياةَ

أنا أُحِبُّكَ ولا أستطيعُ أن أقسُو عليكَ، إن كانت مُصْطَلَحاتي قاسيةً فسامِحني، ذلك مِن وَجَعي عليكَ، تَعلَمُ؟ إنَّني ما زِلتُ تلكَ الطِّفلَةَ التي عَلَّمْتَها، وإن رَفَعتُ عَيني عن وَرَقِي ولم أجِدكَ، أُقْسِمُ إنَّني سَأبكِي طِيلَةَ اليومِ، ما يَمنَعُني هو تواجُدُ أُمِّي أمامي، ونَظَراتُها التي تَختَرِقُ رُوحي، تُفَتِّشُ عن سببِ انطِفائِي، عن سببِ هُدُوئِي وعَدَمِ مُشاجَرَتِي معهم اليوم آهٍ يا أُمِّي، سُلِبَتْ طاقَتِي، ليسَ معي طاقَةٌ تُسْعِفُنِي في تِلْكَ الأيَّامِ، ولا حتَّى لِلكِتابَةِ، كلُّ شيءٍ يَستَدعِي طاقَةً ليست بي.

اليومَ ودَّعتُ حُلمًا آخرَ رغبتُ به بشدَّةٍ، تمنَّيتُ أن أتمسَّك به مدَّةً أطولَ من تلك، ولكنَّه ككلِّ أشيائي وأحلامي هرب بعيدًا، وعندما تحدَّثتُ مع صديقي وأخبرتُه عن تلك الخيبةِ الجديدةِ، لم يستوعبْ كيف أُخبره بتلك الصاعقةِ بثغرٍ ضاحكٍ ووجهٍ مشرقٍ، لا أعلم ماذا يجب أن أُخبره، يبدو أَنَّني بدأتُ أتأقلم على فكرةِ أن أبتلعَ الحياةَ، وإن زارتني القسوةُ استقبلتُها بصدرٍ رحبٍ، ماذا أُخبرُك يا صديقي؟ ليس لديَّ رفاهيَةٌ، فخياراتي تقع بين السيِّئِ والأسوأ، وكلُّ الطُّرُقِ تؤدِّي إلى روما، فما فائدةُ المُعافرةِ مع شيءٍ أعلمُ منذ البدايةِ أنَّه ليس لي؟ ولكنَّ كبريائي يمنعني من قول ذلك، لذلك حاولتُ وحاولتُ، حاولتُ أن أُبقيَه باللينِ تارةً وبالعنفِ تارةً، ولكن بالنهايةِ رحل، لذلك بدأتُ أعتادُ على طعمِ المرارةِ والفقدِ، وأن أتجاوزَ اللحظاتِ الحزينةَ بكوبِ قهوةٍ وأغاني أمِّ كلثوم، كي لا يبتلعَني وحشُ الكآبةِ، وكي لا يمكُثَ معي الأرقُ طويلًا.

أعتقدُ أنها ليست فكرةً صائبةً أن أُفتِّشَ مُذكِّراتي القديمة، ذلك هو المعنى الصريحُ لمقولة "الورقُ يتذكَّرُ مهما نسيتَ أنت" أحلامي هُنا كانت حيَّةً، وحروفي كانت سعيدةً، هُنا كانت محاولاتي للخروجِ من الأعوامِ الماضيةِ على قيدِ الحياة، وهنا طُبِعَتْ ذكرى فُراقِكَ، لأني لا أثقُ في ذاكرتي، ولكنِّي أثقُ في الورق، وذلك ما يحدثُ الآن، دفترِي يبدو ساخنًا، وكأنَّه حيٌّ يتنفَّس، ينظرُ إليَّ بثقلٍ، لا يتحمَّلُ ما به، يُذكِّرُني بكلِّ ما نسيتُه، أو أتظاهرُ بأنِّي نسيتُه، يُذكِّرُني بعثراتي وزلَّاتي، يُذكِّرُني بأنَّه مرَّت خمسُ سنواتٍ على تلك الواقعةِ التي أتغنَّى بها في نصوصي، مرَّت خمسُ سنواتٍ وأنا ما زِلتُ هنا؟ مرَّت خمسُ سنواتٍ وما زال عقلي واقفًا هناك؟ يا للسَّخافة!

هنا أيضًا خِطاباتي التي كُنتُ أكتُبها لك، لأنِّي لا أعلمُ طريقًا لأُرسلها لك، هنا أقسمتُ إنِّي لن أتركَكَ، ولن أُحبَّ غيرَكَ، وهنا انتظرتُكَ أن تأتي، وهنا سامحتُكَ مرَّاتٍ عديدة، هنا عاتبتُكَ لأنِّي لا أُجيدُ الحديث، أو أُجيدُه، ولكنِّي اعتدتُ الصَّمتَ منذ تلك الواقعةِ التي حدَّثتُكَ عنها بالأعلى، هنا الورقُ مُبلَّلٌ إثرَ دموعي التي لا أستطيعُ كبحَها وأنا أنتزعُ الكلماتِ من داخلي، أثورُ على ورقي وأكتبُ بعنفٍ كي لا أثورَ عليكَ أنت، كي لا أُشوِّهَ يدي، كي لا أختنقَ ممَّا بداخلي، هنا وجدتُ مخاوفي التي لا أستطيعُ الجهرَ بها، هنا أجدُ أسئلتي غيرَ المُجابِ عليها، هنا جروحي التي لم تلتئم، هنا

لقاؤنا الأوَّل، وهنا لقاؤنا الأخير، هنا كنَّا معًا، وهنا أفلتَّني، هنا أحداثٌ لا أتذكَّرُها، وهنا أتذكَّرُ أنَّني كنتُ سعيدةً، كنتُ طفلتَكَ وجميلتَكَ، وهنا أخبرتَني أنَّني أسوأُ نساءِ الكوكب، ذلك الشَّريطُ الذي يمرُّ على عيني الآن قاسٍ جدًّا.

سيدي، لا أعلم لماذا أُخلف وعودي دائمًا، وعندما أحاول انتزاعك من داخلي؛ تُثبِّتُ جذورُك فيَّ أكثر

سيدي، هذه الوردة هي آخر شاهدٍ على أثرك، عطرُها كأنفاسك، وأوراقُها كذكرياتِ وصالِنا، وساقُها يتراقصُ كالليالي التي شهدتْ لقاءَنا، تلك الليالي التي خطَّطتُ لها بدقةٍ؛ أملًا ألَّا تفلتَ مني دقيقةٌ دون أن أستغلَّها جيدًا، وكتبتُ لك كثيرًا وقتها، أهديتُ لك كلَّ ما يستطيعُ قلبي أن ينسجَه، غيرَك تمنَّى أن أُهديَ له حرفًا واحدًا، ولكنك -ويا لَسَذاجَتي- لم تَقرأ بحجَّةِ أنَّك لا تَهوى اللغةَ العربيةَ أو القراءةَ، ولكنك رُبما لم تكن تَهواني أنا

اعتقدتُ أن بالإمكانِ إصلاحَ ما كان، ونعودَ كما كُنَّا، ولكني كنتُ مُخطئةً، أنت لم تأتِ، وأنا توقَّفتُ عن انتظارِك، وأُخبرُ نفسي مرارًا وتكرارًا: "لا بأس" كلُّ شيءٍ يمرُّ كما علَّمتني، ولكنك كنتَ تُخبرني أنَّ كلَّ شيءٍ سيمرُّ ما دُمنا معًا، نحن لسنا معًا الآن، سأُردِّدُ مُجددًا: "لا بأس" حتى وإن انهمرتْ مني الكثيرُ من الدموع، فلا بأس أيضًا

لا بأسَ بالتأملِ في صورِنا معًا ثم حذفِها من كلِّ الأماكنِ دونَ رجعة، لا بأسَ في الاستمرارِ في استخدامِ مصطلحاتِك بدونِ وعيٍ مني، ولا بأسَ إن سألني أصدقائي عنكَ، لا بأسَ في أن يعتريني الخوفُ ويُقبَضَ قلبي عند سماعي لأغانينا المفضلة، لا بأسَ بأيِّ شيءٍ، ولكن عيني لا تزالُ تدمعُ عند قولِ "لا بأس"

ولكن كم من مرةٍ خُيِّلَ لي أنَّ ذلك الضوءَ الذي في عينيكَ هو شرارةُ حبِّك لي، لم أُفكِّر حتى أنَّ ذلك انعكاسُ حبِّي لك، وأنت لم يَقرُبَ الهوى قلبِك حتى، أكانتِ المشكلةُ فقط في عقلي؟ أنت لم تَمُرَّ في شارعِنا عن قصد؟ ولم تُهدِني تلك الزهرةَ لأنني أنا؟ أكُلُّ ذلك كان زيفٌ يا عزيزي؟ وأنا من توهَّمتُ حبَّك؟ كيف لم أُلاحِظ؟ كيف لم أسأل نفسي من قبل: كيف لا يُحاولُ من أجلي؟ كيف تشملني نظراتُه العادية؟ كيف لا يَراني مُبهرةً؟ وكيف لا تُفزعه جروحُ يدي؟ كيف لا يتغزَّلُ في عينَيَّ؟ وكيف يراني أضيعُ من يدَيه ويتركني هكذا؟ مَن لم أُلقِ عليه نظرةً واحدةً فعلَ كلَّ ذلك، ومَن التفتُّ له بكلِّ جسدي وحواسِّي، يَنظرُ إلى الجهةِ الأُخرى، يا لَلسَّذاجتي! وكأنني انتظرتُ أن تحدثَ معجزةٌ ويبهتَ حُبي عليكَ، ولكن رُبما أنا لم أكنِ المرأةَ التي رغبتَ بها، لا ألومُك، الله هو من يزرعُ الحبَّ فينا، ولم يكنْ نصيبي أن يُزرَعَ حبِّي في قلبِك، رُبما لو كان الأمرُ بيدِك لأحببتَني، صحيح؟

أنا يا سيدي مُغرمٌ، وقد أوشكتُ أن أُجنَّ، أتلفَّتُ حولي مع كلِّ
رائحةٍ رجاليةٍ تُشبهُك، أبحثُ عنكَ في درجاتِ الحرارةِ
وأخبارِ سوريا وفلسطين، أبحثُ عنكَ في أيدِي العُشّاقِ
المُتشبِّثين ببعضهم، وتفاصيلُك تحومُ حولي تُزلزلُ أركاني
وتُفقدني صوابي؛ فمحويتُك التي تأسرني، وعيناكَ البُنيَّتَانِ
اللَّتَانِ تجعلاني أتيقَّنُ أن هناكَ شيئًا يستحقُّ أن نَحيا لأجله،
وشعركَ الذي أتمنى أن تتخلَّله يدي، ولحيتُكَ الخفيفةُ التي
أصبحتُ أُحبُّها منذ أن أحببتُك، صوتُكَ المُفعَمُ بالحيويةِ،
وملامحُكَ التي تُشبهُ أغصانَ الزيتونِ
يا سيدي، أنا مُغرمٌ، ومثلي إن عَشِقَ؛ يُجنُّ.

أيُّهُما أقسى يا سراج، أن تَنهزِمَ أم تَنسَحِبَ؟
عَلمتُكَ ألَّا تَتسرعَ، فكر جيِّدًا، أتُخبِرُني أن الهَزيمَةَ أقسى؟ وَلكِن نُهزَمُ مِمَّن؟ أتَعلمُ ماذا يَعني أَن تُهزَمَ مِنَ الحَياةِ، وَمِنَ الناسِ، وَمِن نَفسِكَ في لَحظَةٍ واحِدَةٍ؟ أن تُهزَمَ مِن عائِلَتكَ، وَمِمَّن أحبَبتَهُ، وَمِن كُلِّ شَيءٍ! أتعلَمُ ماذا يَعني أَن تَخوضَ مَعرَكَةً لا تَقوَى عَلى مُواجَهَتِها فَقَط بِسَببِ خَوفِكَ مِن أن تُلامَ، وَيَتَّهِمُوكَ بِالضَّعفِ؟ خَوفًا مِن شَماتَةِ بَعضِهِم، لِذلكَ أنا أقولُ إن الانسِحاب أفضَلُ، فَهُو يُوَفرُ ما تَبَقى لي مِن طاقَتي الجسَدِيةِ وَالنفسِيةِ، حَتى لو اتَّسَمتُ بِالجُبنِ، الحَياةُ أقوَى مِنِّي وَمِنكَ يا سراج، أتفهَمُ؟
رُبَّما لَو خُيِّر بَعضُ رِجالِ الحَربِ بَينَ أن يَنتَصِروا في مَعرَكةٍ دامِيَةٍ، أو يَعيشوا حَياتَهُم قَبلَ الحَربِ، لاختاروا الحَياةَ القَدِيمَةَ، حَتَّى لَو كانَت تَحتَ إذلالٍ وَهَزيمَةٍ، لا تَنظُر إليَّ هَكَذا! أنا مَع أنصارِ الحُريةِ وَالتحرِيرِ بالتأكيد، وَكُلِّ ذَلِكَ الكَلامِ المُنَمَّقِ، وَلَكِنَّ أهوالَ المَعارِكِ لا تُمحَى بِسُهُولَةٍ، كُلُّ نَصرٍ آتٍ بَعدَ كِفاحٍ قاسٍ يَخسَرُ جُزءًا مِن انتِصارِهِ، كُلُّ تَحرِير بَلَدٍ آتٍ بَعد الكَثِيرِ مِن الدِّماءِ وَالأَجسادِ المُفَحمَةِ وَالأُسرِ المُشَردَةِ، إلَّا الجَنَّةَ يا سراج، فَهِي ما تَستَحِقُّ أن نُحارِبَ لِأَجلِها، وَهِيَ الوَحِيدَةُ التي لَن تَشعُرَ بِمَرارَةِ الدنيَا عِندَما تَفُوزُ بِها، لِأَيِّ هَدَفٍ نُحارِبُ غَيرَ ذَلكَ يا سراج؟

كيف تحوَّل النومُ في التاسعةِ ليلًا كي نذهبَ إلى المدرسةِ في الصباحِ إلى التنقُّلِ بين حافلةِ الجامعةِ والبحثِ عن عملٍ وزوجٍ؟ كيف تحوَّل وجهُ أبي الذي أعرفُهُ جيدًا إلى وجهٍ أكبرَ، عجوزٍ تكثرُ فيه التجاعيدُ؟ كيف تحوَّلتِ المخاطرُ إلى خواطرَ؟ والذاكرةُ إلى مذكِّراتٍ؟ والبكاءُ طولَ الليلِ وحدي إلى بكاءٍ طولَ الليلِ وحدي؟ فهذه لم تتغيَّر*

*كيف مرَّت هذه السنينُ بكلِّ ما تحملهُ من أيَّامٍ لسعتني فيها حرارةُ شمسِها وأيَّامِها؟ والآن أجلسُ في شُرفةِ الغرفةِ أراقبُ المارَّةَ بكوبِ قهوةٍ ثقيلٍ يُعزِّيني في مرارةِ الليلِ، أراقبُ المارَّةَ كأنَّهم ذكرياتٌ، أجدُني هنا أيضًا في عيونِ الرَّاحلين والمنتظرين، في ذلك الشَّارعِ سقطتْ ذكرى جميلةٌ منِّي، وفي الشَّارعِ الذي يليهِ تلاقينا مرَّتين؛ مرَّةً وأنا مُحمَّلةٌ بكلِّ معاني الحُبِّ لكَ، ومرَّةً وأنا لا أتذكَّرُ معالمَ وجهِكَ، لا أتذكَّرُ هل كنتُ أحبُّكَ حقًّا في يومٍ ما؟

متى فعلتْ بي الأيَّامُ كلَّ هذا؟ ومنذ متى أكتُب عن الفقدِ وكأنَّهُ جُرحُ إصبعٍ؟ أجدُني الآن في واقعٍ مؤلمٍ، ومتى من الأساسِ وجدتُني في غيرِ ذلك؟ أتذكَّرُ أوقاتَ تعاستي التي قضيتُها وحدي، أتذكَّرُ أوقاتَ ضعفي التي ادَّعيتُ القوَّةَ فيها كي لا تنالَ منِّي نظراتُ الشَّفقةِ

متى كَبِرَ الصَّغيرُ؟ وتضاءلَ الضَّخمُ؟ وهدأ الوحشُ؟ وعادَ الرَّجلُ رضيعًا يشكو لأمِّهِ؟ وأصبحَ الطِّفلُ ينفرُ من أهلهِ هاربًا؟ متى أصبحَ حديثي عن الرِّجالِ والزَّواجِ أمرًا مسموحًا

به؟ منذ متى أبي لا يُسكتُني عندما أتحدَّثُ عن مواضيعَ "أكبرَ من سنِّي"؟ أشعرُ أنَّ عُمري فرَّ من يدي، لا أستوعبُ كيف أصبحتُ تلك المرأةَ النَّاضجةَ التي تُطلبُ يدُها، ويُحترمُ رأيُها، وتتجوَّلُ أينما شاءت، لها حقٌّ في الاختيارِ والرَّفضِ، ذلك شعورٌ مرعبٌ يا عزيزي، لستُ مستعدَّةً لمواجهةِ حياةِ الكبارِ كما يُسمُّونها، أنا ما زلتُ تلك الفتاةَ ذاتَ الضَّفائرِ والوجهِ الخالي من مستحضراتِ التَّجميلِ، التي تُحبُّ الحلوى والشُّوكولاتةَ والزُّهورَ، التي ما زالتْ تنتظرُ فارسَ أحلامِها يأتي على فرسٍ أبيضَ، متى كبرتُ أنا وطُلِبَ منِّي اختيارُ تخصُّصٍ جامعيٍّ ووظيفةٍ وبيتٍ وعملٍ؟

عزيزي سراج، إنهم يتساءلون: من أنت؟ وأين أنت؟ ولماذا أصبحتَ تشمل أحاديثي مؤخرًا؟ لا أعلم، ولكني أُفضل أن تبقى سِرِّي، لن أبوحَ بك في المجالسِ، سأجعلك سِرِّي الدفين في سرداب قلبي، الذي أنرته أنت يا سراج، وكما قال كتاب اللهِ الشريف: "وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا" لذلك أخبرني يا سراج، لا تقلق، لن أقول: "أيهما أقسى" هذه المرة، أخبرني، لماذا كل شيءٍ أكتُبُ عنه يتبدد؟ أحلامي ناقصة، حروفي ليست مُرتَّبة، النهايات مفقودة، أنا شخصيًا لا أعلم من أنا، أأنا الشخصُ المتديِّنُ الذي يُحب الله، ويكتب عنه، ويترجَّى رحمته ومساندته؟ أم الشخصُ الذي يكره أقدار الله، يكره نصيبه من الدنيا، يكره الله في أوقاتٍ كثيرة، ويراه ظالمًا؟ إذا كنتُ أنا ذلك الشخص الهادئَ الرزينَ، إذنْ ما تلك النار التي بداخلي؟ أأنا الجنةُ أم النار؟ الحُب أم البُغض؟ لماذا يَتَّسِعُ صدري العالمِ في أوقاتٍ، وفي أوقاتٍ أُخرى لا يسعني أنا شخصيًا؟ أنا الأسودُ أم الأبيض؟ إذا كانت ابتسامتي مُبهِجَةً، فلماذا عيناي حادَّتَان؟ أنا كل شيءٍ وعكسه يا سراج، لا أنتمي إلى مبدأ، ولا أدعم شيئًا بذاته، أنا مُنثورةٌ بين كل الأشياء، أُصارعُ ذلك تارةً، وأتقبَّلُهُ تارةً أخرى، أثور وكأنني سأُدمِّرُ كل شيءٍ، وفي لحظةٍ تَبرُدُ أعصابي وكأنني قطعةُ جليد، أنا جميع أصواتِ عقلي، ورغباتِ قلبي، لا تَسَمني بالازدواجية يا سراج، أنا فقط أُصارع نفسي، أكبَحُ أفكاري، وأُرَوِّضُها بقدر استطاعتي، أُرضي شخصيتي المُتَدَيِّنةَ أوقاتًا،

وأوقاتًا لا أستطيعُ منعَ شخصيتي الجامحة، أحيانًا أُحِبُّهم، وأحيانًا لا أرغبُ قُرْبَهم، تعبتُ يا سراج، عقلي يُؤلمني، تَدافُعُ جميعِ الأفكارِ معًا يُؤلِمُ، ومللتُ من الصراعِ بمفردي، لذلك أنتَ هُنا، تُجيبني عمَّا عجزتُ عن إيجادِ إجابةٍ له، وسأُخفيكَ كي تبقى، هذه حيلتي السِّريةُ، التي تعلَّمتُها من كَثرَةِ فقدي للأشياء، ولا أريد أن أفقدكَ أنت.

توقعتُ أن يأتيِ الوداعُ مُحمَّلًا بالكثيرِ من الرسائل العِتابيةِ، ولكنه جاءِ جافًّا، صامتًا، ليجعلني أواجه ذكرياتِنا، السعيدَ منها والأليم، لأتساءل بكل الندم والتشتيت: لماذا؟ ولا أجد إجابةً، وأعتقد أن هذا الشعورَ سيُلازمني طويلًا
أتَعلم كيف أشعر؟ لم أجد مصطلحاتٍ كافيةً في اللغة تُعبِّر عن ثقل القلب، وقسوة الذكريات، سوى الالتيَاع، ومن أنا كي أُقاوِمَ الالتيَاع؟ الالتيَاعُ هو كلُّ الحبِّ الذي لا تستطيع تقديمه لنفس الشخص مُجددًا، كلُّ الأحداثِ التي كنتَ تريدُ عيشَها معه، كلُّ الأمنياتِ التي كنتَ تريدُ تحقيقها وأنت مُمسكٌ بيديه، كلُّ المشاعرِ التي تكنُّها لهذا الشخص أصبح يملؤها الغبارُ، لأنك تغوصُ بها وحدَك على الرغم من وجوده، ولكنك لا تستطيعُ الاندفاعَ نحوه لتصحبه في عناقٍ دافئٍ وتُخبره كم اشتقتَ له، ولا يأتي الالتيَاعُ وحده، إنما يصحبُ لكَ فيضًا من الذكرياتِ قد يُغرِقُك، ولا مناصَ من قليلٍ من الحنينِ وجلدِ الذات، وكأن الخطأ خطأُكَ أنتَ، لا أحدَ غيرَكَ، حتى حروفي لا تسمعني، ولا أستطيع أن أُنسِّقَها كي أُكمِلَ حديثي، ولكني سأظلُّ أشكوكَ إليها، وعزائي الوحيدُ أنني أكتبُ لكَ بعد الرحيلِ فصولًا أطول، لأن الفصلَ الوحيدَ الذي كتبته في وجودِكَ كان من أربعةِ أحرفٍ فقط، حتى لم يتبقَّ أيُّ حرفٍ بيننا، لم يتبقَّ لي سوى كلماتِكَ الساذجةِ، التي صدَّقتُها لمجرد أنك أنتَ من قلتَها، ليس غيرَكَ، ومحاولاتِكَ المُستضعفةَ للبقاء بجانبي في أحلكِ أوقاتي، ويديكَ الزلِقةِ،

التي أفلتَتني بقلبٍ باردٍ، والكثيرِ من التساؤلاتِ التي لم أجد لها إجابةً، وقصَّتِنا الحزينةِ التي تقعُ على مسامعِهم كالصاعقةِ، والكثيرِ من الاشتياقِ غيرِ المُبرَّر، أنا حتى لا أستطيعُ الإجابةَ عن أسئلتِهم عندما يسألونني عنكَ، لم أستطع إخبارَهم بما حدث رغم قُربِهم مني، لا يوجد شاهدٌ عادلٌ هنا سوى حروفي، فهي لا تُغادر، لا تحكُم، لا تستحقر أحدًا، ولن تُهاجِمَني عندما أقولُ بقلبٍ مُنهزمٍ إنني اشتقتُ لكَ، وإنني كنتُ أحتاجُ فرصةً لإثباتِ أنني أَستحقُّ أن أُحَبَّ، وكُنتَ تحتاجُ فرصةً لتطبيقِ حُبِّكَ، كلماتُكَ اللامعةُ لي كانت تحتاجُ إثباتًا، لا أن تظلَّ مجردَ كلمات، آهٍ يا عزيزي، يا وجعي على حياةٍ سأبدأُها من دونكَ.

أُفَتشُ عن ذِكرَاكَ يا عَزِيزِي بَيْنَ سُطُورِي، أعلمُ أنكَ كُنتَ هُنا، بِكُل مَا تَحْمِلُهُ الكَلِمَةُ مِن مَعنى، ولَكِن الآن لَم يَتبقَّ لِي سِوَى كَلِمَاتِي الَّتِي نُقِشت وَقتها، نَقشتُها وَأنا كُلِّي دِرايةٌ بأن مَسَامِعي لَن تُطرِبَ بِمِثلِ هَذِهِ الكَلماتِ مَرةً أُخرى، وَلَن أرى لَمعَةَ عَينيكَ إثرَ رُؤيَتِي

الآن جَمِيعُ الأَشياءِ مُتَشابِهةٌ، تُسَمَّى الأَشيَاءُ بِأصلِهَا، وَالتوارِيخُ مُجَرَّدُ أرقامٍ، لَم يَعُد مَا يَجعَلُنِي أحتَفِي بِمُرُورِ هَذَا اليَومِ، لِأَن كُل شيءٍ تَغير؛ مَشَاعِرُكَ بَردتْ وأصبحتْ تَشملُني نَظَراتُكَ العَادِيةُ، وَالخَطأُ خَطَئي وَحدِي يَا عَزِيزِي، أنا مَن سَمَحَ بِتسلُّل شَبَحِ الحُبِّ إلى حَيَاتِي، وَلكن على الرَّغمِ مِن ذَلك، أنا مَا زِلتُ أفتقِدُكَ، وأتقفَّى أثركَ هُنَا وَهُناكَ، وَلَكِن كما قَال عَبدُ الوَهابِ: "مِش أنا إلي أبكِي، وَلَا أنا إلي أشكِي لَو جَار عَليَّا هَوَاك، وَمِش أنا إلي أجري وأقُول عَلشان خاطري، وأنا لِيا حق مَعَاك" كُل الحقِّ كَان لِي، وَلَكِن لَم أستَطع الوُقوف أمامَكَ وَلَومكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ حَدَثَ، لم أستَطِع استخدام كَلِماتكَ المعسولة ضِدكَ، ولَا قَول: لِمَاذَا جَعَلتَ ذِكرَاكَ الجَمِيلَةَ تتبدَّدُ ويَحلُّ مَحَلها الفُتُورُ؟ لم أستطِع لومَكَ عَلى الجرحِ الَّذي تسببتْ بِه ذِكرياتُكَ، السعيدُ مِنهَا قَبل الحزِين، لَم أستطع لومكَ عَلى قَسوَتِكَ مَعي، وَبَعدما كَان جرح يَدِي يُفزعُكَ، الآنَ النارُ المُتأججةُ فِي صَدرِي لَا تُلفِتُ نَظَرَكَ، لم أستطِع لومَكَ عَلى جَعلِي مُتقوقعَةً فِي غُرفَتِي،

أُحدقُ فِي السقفِ بِلَا نهايةٍ، وَلم ألومكَ عَلى إعادتِي لِفترةٍ خَرَجتُ مِنها بالكادِ حَيةً، لم يَكُن ذَلك مَا تَعَاهدنَا عَليه، وَحُرُوفِي تَشهدُ عَلى ذلكَ، أين تِلكَ اللهفَةُ؟ أين حَمَاسُكَ بِي وَوُقُوفُكَ فِي أولِ الصُّفُوفِ لِتحتفِل بِكِتَابِي الجَدِيدِ؟ أينَ خَوفُك مِن أن نَفترق أو تُعَبئ رَأسي بِسُوء الظَّن؟ أين قسمُكَ بِألَّا يَتخلَّل وعيِي شَكٌّ فِي حُبِّكَ لِي؟ أين أنت؟ أنا لم أعُد أراك، وَأتمنَّى أن تَكُون المُشكلةُ فِي عَينيَّ.

دعني أقول لك أنَّ الورودَ لم تكن مُلفتةً لي من قبل، لم أعلم أن لها رائحةً جميلةً، وألوانًا مُبهرةً، ولم يكن يعنيني أن أُفضّل لونًا على لونٍ إلا عندما أحببتك، وأنا بطبعي لا أثق في الحبِّ، والورودِ، وفيروز، والقهوة، ولكن منذ قدومك وكلٌّ منهم له إيقاعٌ خاصٌ على قلبي، قطفتُ تلك الورود من حديقةِ جارنا، ورغبتُ في إهدائها لكَ، ولكنك رجلٌ شرقيّ، بك من الرجولة ما يجعلني أن أكون كما يقولون "أُنثى" لا أُخفيك سرًّا، أتقذذ من ذلك المُصطلح، وعندما يُذكر لا أتخيّلني إلا وأنا أرتدي فستانًا قصيرًا ورديَّ اللون وأطهو طعامك المفضّل، وروح النسوية بداخلي لا تقبل بذلك، ولكن حسنًا، لا بأس، لنَعُد إلى موضوعنا، لا أعلم كيف سأُلملمُ حروفي لأقف أمامك وأُمّد يدي بتلك الورود وأخبركَ "أُحبكَ" غريبة صح؟ ولكن لا تُهدى الورود إلا لأشباه الورود، فلم أُقاوم إلا أن أقطُفها لك، وأُفكّر فيك بشاعرية وأُلقبك بآخر حبة توت في شجرة جاري، كثيرون يَدعُون أنهم أحق منكَ، وأنهم الأجدرُ بالغزلِ والمدحِ، وأن أُحبهم وأهدي لهم نصوصي، ولكن بالنظر فقط إلى عينيكَ حين يضيقان وأنت تبتسم على مهلٍ، وأنتَ تتحدث وتنظر إليَّ، ستُدرك من الأحق هُنا، ولا غيرك أحق يا عزيزي، يا جميلي، يا زهرةً خاليةً من الشوك، تتخللها رائحة البراءة، والطفولة، والرجولة النادرة، قد بالغتُ في الوصف؟ أبدًا، أنت لم ترَ نفسك بعيني أبدًا، إن فعلتَ أعدك أن تُغرم بنفسك ولا تتوقف

عن النظر في المرآة، ورُبما تُلقب بالنرجسي وقتها لكثرة
إعجابك بنفسك، ولكني إن لقبتُك بالنرجسي سيكون فقط تيمُّنًا
بزهرة النرجس
عزيزي يا صاحب الظل الطويل، صاحب حرف الميم،
وصاحب قلبي، دعني أُخبركَ أن تفاصيلك تطرحني في
غياهب الحب، تأسرني، وتطيش بعقلي، تفاصيل جديدة
وفريدة، لا تكفي حروفي لنقش ما يدور في عقلي، وإن
حاولتُ، نصوصي تطول ويُصبح من الممل قراءتها، ولكن
يلا يُهم، يكفي أن أحاول، فقط أحاول جعلك تُعري دواخلي
لترى كم أُحبكَ، وكم أنا مستعدة لأجلكَ أن أقتطف حديقة
جارنا بأكملها، أن أُعاديهم جميعًا، وأن أُلقب بالعاشقة الولهانة
لأجلك، لأجلك أستمع لداليدا وفيروز، والمصارعة الحُرة،
ولكل شيءٍ لا يتفق مع الذي يسبقه، ألم أخبرك أنك فريد؟
وأنا مُتيم بالاختلاف والتميُّز.

عزيزي مُحمد، أو أحمد، ولكني أُفضل أن أُناديكَ محمود، ذلك الاسم له إيقاعٌ خاصٌّ على قلبي، كُلما سمعتُ صديقَ أبي يُخبره عن اشتياقه له ويردُّ أبي: "وأنتَ كمان والله يا محمود" ألتفتُ أنا بدلًا منه، ويضحك أبي على اهتمامي الغريب بالاسم، وأُخبره أنَّ هُناك فكرةً في عقلي تُخبرني أن جميع الذين يحملون ذلك الاسم أنقياءُ القلب، وملامحُهم كأغصان الزيتون، رغم طولِ عمرها إلا أنها جذابةٌ وقوية، يمتلكون ذوقًا غريبًا وفريدًا من نوعه، ولديهم أفكارهم الخاصة حول الأطفال، والزواج، والبلاد الأُخرى، أشعرُ أنني إن دخلتُ نقاشًا مع أحدٍ بذلك الاسم، سنتناقشُ بانسجامٍ حول قضيةٍ مشتركة، سيكون لدينا بعضُ الاهتمامات المشتركة وبعضُ وجهات النظر المختلفة التي ستجعل أحدَنا "يفتح دماغ" الآخر

أُمازح أمي وأُخبرها إنني سأُسمي ابني محمود، فتضحك وتُخبرني بسخرية: أجل، لما لا؟ أُحاول أن أشرح معنى الاسم لها، وأقول إن ابني سيكون ذا صفاتٍ حميدة، لأن جميعنا نأخذ نصيبًا من أسمائنا، سيكون فتىً جميلًا، يمتلك لغةَ جسدٍ مُبهرة لشخصٍ يُحلل الالتفاتات والإيماءات مثلي، سأعلمُ من عينيه إن أحبَّ وإن حزن، وإن غضب، سيُحب القراءة عن قوى الاستعمار، وسيكون طويلَ القامة وجميلًا، سيُحدثني عن دولِ الشرق والغرب، وسيُحب المصارعة وتلك الألعاب التي لا تستهويني، لكنه سيجعلني أجلس معه

وأُصفق بحماسٍ لحماسه، سأسمح له أن يفرضَ رأيه، ويتفلسفَ بكل ثقةٍ عن رأيه وسأُيده، وهل سأكسبُ شيئًا إذا فزتُ بالنقاش وخسرتُ فرحتَه؟ أعلم أنه سيكون ذلك الشرقيَّ الذي لا يقبل إلا بأدوار البطولة، وأنا تلك الغربيةَ المُتعجرفة حول حقوق المرأة والنسويات، ولكن معه لا بأس، أفكارُ الشرقِ جميلةٌ أيضًا، سأُحظّره من شُربِ القهوة، وسأُخبره أن يهتمَّ بصحته، سيكون ذلك الفتى القويَّ المُبهرَ لأيِّ فتاةٍ في سنِّه، سيكون حنونًا على زوجته، وسيحتضنها في كُلِّ الأوقاتِ، سيُغير رأيها عن الرجال، وسيجعلها تتذوق طعمَ الأمان، سيخشى عليها من جميعِ الرجال، ومن نفسها، ومن إسرافها في القهوة، وأغاني أمير عيد، وهي أيضًا ستُحبه وكأنها تتذوق الحبَّ لأول مرة، ستتقاسم معه حِدَّةَ التفكير، وسرعةَ الغضب، والحبَّ الذي بين الممكن والمستحيل، وستدعو له أن ينالَ ما يُريد، وألَّا يحزنَ قلبه، أو يُعاني.

آهٍ لو تعرف كم أنا مُولعةٌ بالإسكندرية، تلك البلدِ الشاعريةِ، الإسكندرية مدينةِ الحُبِّ، ليست باريسَ أبدًا، فباريس مدينةُ الأثرياء، وأنا لا أؤمن أنَّ الأثرياءَ يُقدِّرون الحُبَّ، لكنَّ ثمةَ فقراءَ في الإسكندريةِ يعيشون على الحُبِّ، على ساحلِ المدينةِ، على فُتاتِ الذكريات، في هذه المدينةِ تكمنُ الذكريات، فالمدينةُ لا تنسى ضحكاتِ العُشاقِ، ولم تمحُ أساميهم المكتوبةَ عليها، لا ينسى البحرُ الأماني المُعلَّقةَ به، المُلقاةَ مع الصخورِ المُفتَّتةِ والقلوبِ المكسورة، هُنا وعودٌ، وهنا خذلانٌ، هنا كان اللقاءُ الأولُ، وفي الشارعِ الآخرِ كان اللقاءُ الأخيرُ

الإسكندريةُ مدينةٌ لا تعترفُ إلا بالحُبِّ والذكرياتِ، تأبى النسيان، فالموجُ الذي شهد على عناقٍ حارٍّ يشهدُ الآن على دموعٍ حارقةٍ، الشاطئُ الذي يعرفُ خطواتِ العُشاقِ يعرفُ أيضًا خطواتِ الراحلين ودندنةَ أغانيهم الحزينة، الأماكنُ لا تنسى أبدًا زائريها، وأماكنُ اللهِ التي سمعت دعواتِنا لا تنساها أبدًا، لم أجدْ مُبررًا لحُبِّي لتلك البلدِ العجيبةِ، رغم أنَّ كُلَّما خطوتُ خطوةً بها تنقلبُ حياتي ويحدثُ شيءٌ يجعلُ أمي تقسمُ ألا أخطُوها مُجددًا، ولكن ماذا أفعل؟ حتى حُبي للبلادِ يأتي بالعثراتِ، وكم أعشقُ ذلك

الإسكندريةُ هي البلدُ الوحيدةُ التي أرغبُ في زيارتها، رغم كُرهي الشديدِ للسفرِ وتركِ سريري وبلدي الهادئة، ولكن

طريقُ الإسكندريةِ يُشعرني بالحياة، يطمئنُ قلبي، حينما ألمحُ شاطئها الصاخب، وحينما أشمُّ رائحةَ الشوارعِ الدافئة وألمحُ الشغفَ في عيونِ الناس، أظنُّ أنني لو عشتُ هنا لن أُفكرَ أبدًا في الانتحار، كيف ينتحرُ شخصٌ ويتركُ ذلك الجمال؟ هنا أكونُ حرةً لا تُكبلني قيودٌ، هنا أكونُ حقيقيةً، يتمردُ شعري الغجري مع هواءِ المدينةِ بدون أن أُقيِّده برباط، هُنا الوقتُ يمرُّ أسرعَ من نسماتِ الهواء، هُنا القهوةُ لها مذاقُها الخاصُّ، هُنا الأغاني التي تُسمعُ تُبصمُ في الذاكرةِ باسمِ الإسكندرية، هُنا طفولتي ومراهقتي، هنا الجدرانُ التي رسمتُ عليها في صباي، وهنا أولُ عناقٍ منك، وأولُ توبيخٍ من أبي، هنا ارتديتُ ذلك الفستانَ القصيرَ الذي جعلنا نتشاجرُ، هُنا كان أولُ حُبٍّ وآخرُ حُبٍّ

أنا أكمنُ هُنا يا عزيزي، مهما توزعَ جسدي، وذكرياتي على محافظاتِ مصرَ، فجزئي الأكبرُ سيظلُّ هنا، أنا أُحبُّ الإسكندريةَ كثيرًا، وأُحبُّكَ.

إلى أعزّائي الذين يقرؤون لي ويشاركونني خوفي وضجري من الدنيا، إلى الذين يتنهدون كثيرًا بين هذه السطور، وإلى الآخرين الذين وصلهم اعتذاري متأخرًا، أما بعد...
تلك الرسائل كانت تُثقل روحي، والآن حان لها أن تخرج إلى النور، لذلك اسحب كرسيًّا، واصنع لنفسك كوب قهوةٍ يعزّيك في مرارة الليل، واقرأ لي، ئِن إن أردتَ، ولكن بهدوء، فالجميع نيام.

والآن، وقد انتهينا من ذلك الكتاب، وتلك الخواطرِ العبثيةِ التي فتَّشتْ عن ذكرياتٍ قديمةٍ، وبكلِّ صدقٍ لا أعلم إلى من أُهديه، رُبّما إلى صديقتي الوفيةِ "ندى" التي تطغى عليها براءةُ الأطفال، والتي ظلَّت بجانبي تُشير إلى نقاطِ النورِ بداخلي في أكثرِ وقتٍ كنتُ قاتمةً فيه، تلك التي لا يكفي حديثٌ لوصفِ جمالِها ونقائِها، تلك التي علَّمتني أن المُحبَّ لا يرحل

أو إلى صديقتي الراحلةِ "فريدة" التي كانت أشبهَ بابنتي، والتي حظيتْ بنصيبها من اسمها، فهي كانت فريدةً بكلِّ ما تحمله الكلمةُ من معنى

أو إلى عزيزتي "ملك" صديقةِ طفولتي ومراهقتي ونُضجي ورُشدي، التي أتمنَّى أن تظلَّ هنا إلى الأبد، ولا تُصيبَها اللعنةُ التي أصابت كلَّ شيءٍ أحببتُه

أو إلى عزيزي، صديقي وحبيبي، وبصوتِ أمِّ كلثوم: "عُمري" الذي أتمنَّى ألّا يُفرّقَنا سوءُ الأقدارِ وعثراتُ الطُرقِ، ذلك الذي يُناقشني بفلسفتِه التي أعشقُها عن كلِّ شيءٍ وأيِّ شيء

أو أُهديه إلى ابنةِ عمّتي، ورفيقةِ أيامي الطويلةِ، التي أستطيع مناقشتها عن سحابةٍ أعجبتني، عن طريقةِ سردِ ذلك الكاتب، وعن القهوةِ والليلِ والحبِّ، ونحن نستمعُ إلى فيروز

أو أُهديه إلى أختي الغاليةِ، التي تودُّ حمايتي كأمّي، وإلى ابنةِ خالتي الجميلةِ، التي كانت تؤمنُ بي حينما كَفَرَ الجميع

أو أُهديه إلى الذين يقرؤون لي بحُبٍّ، يُصفِّقون لي بشدَّة،
ويُخبرونني بحبِّهم لنصوصي الغريبة، هؤلاء الذين دعموا
خطواتي الأولى حتى أزهرتْ، هؤلاء هم قُرّائي الأعزّاء،
الذين لا يجمعني بهم سوى تلك السطور
أو أُهديه إلى الذي وضعني على بدايةِ ذلك الطريق، وجعلَ
الحبَّ يتغلغلُ فيَّ حتى انبثقَ في حروفي
أأهديه لأمّي؟ وأُخبرها أنني تمنَّيتُ أن أكون ابنةً تفخرُ بها في
المجالس؟
ربّما أُهديه لأيامي القاسية، التي جعلتني أكتبُ عندما لم أجد
من يستمعُ إلى حروفي المبعثرة
أو أُهديه لنفسي، أُهدهدُها كطفلٍ صغيرٍ، وأُخبرُها أننا مررنا
من كلِّ شيءٍ قاسٍ، وأننا لا نزالُ على قيدِ الحياة
عزيزتي أنا، نحنُ حقَّقنا ما رغبنا به، وأخيرًا، وطريقُنا لم
ينتهِ
أتمنى أن أراكم في كتابٍ آخر، على أمل أن يكون أقل قسوةً،
وجفاءً، وداعًا
أُحبكم، عزيزتُكم أستير.

مراسيل آذار

أستير ثابت

إلى هؤلاء الذين ما زالوا
يؤمنون بالورقِ.

أؤمنُ أن المراسيلَ
باقِيةٌ، وإن رحلَ
أصحابُهَا

دار ياقوت فاطمة
للنشر والتوزيع
01555191983